

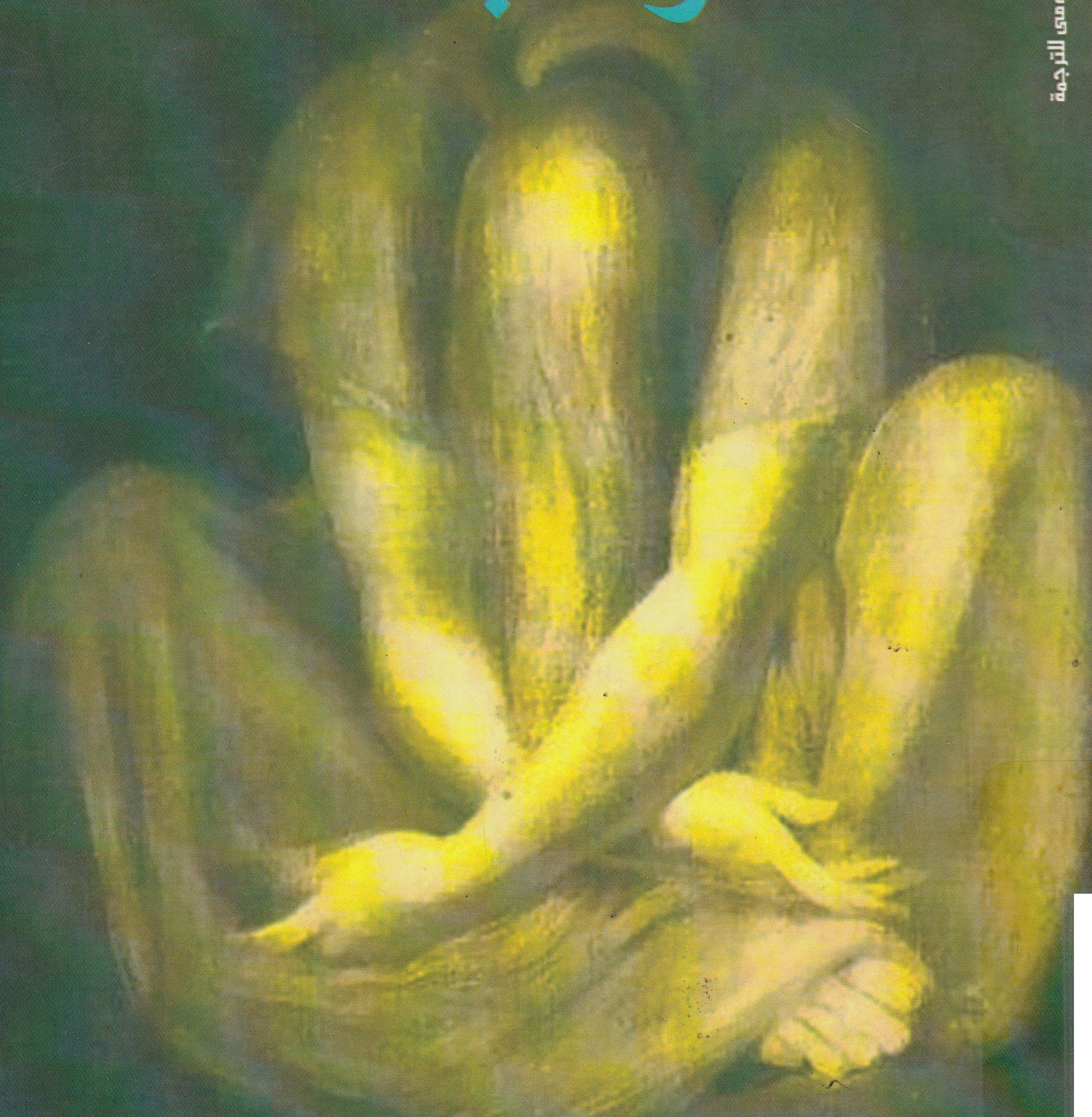
المركز القومي للترجمة

موريس ماتيرلنك



المشروع القومي للترجمة

كنز البسطاء



ترجمة: أحمد فؤاد عبد المجيد عفيفي
مراجعة: شيرين عبد الحميد على أحمد

1637

كنز البسطاء

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1637

- كنز البسطاء

- موريس ماتيرلنك

- أحمد فؤاد عبد المجيد عفيفي

- شيرين عبد الحميد على أحمد

- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

Le Trésor des Humbles

Par: Maurice Maeterlinck

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٢٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com

Tel: 27354524- 27354526

Fax: 27354554

كنز البسطاء

تأليف: موريس ماتيرلنك

ترجمة وتقديم: أحمد فؤاد عبد المجيد

مراجعة: شيرين عبد الحميد على أحمد



<p>بطاقة فهرسة إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشؤون الفنية</p>	
<p>ماتيرلنك: موريس، ١٨٦٢-١٩٤٩ كنز البسطاء؛ تأليف: موريس ماتيرلنك؛ ترجمة وتقديم: أحمد فؤاد عبد المجيد؛ مراجعة: شيرين عبد الحميد على أحمد ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠ ١٢٨ ص؛ ٢٤ سم ١- الفلسفة في الأدب. (أ) عبد المجيد، أحمد فؤاد (مترجم ومقدم) (ب) أحمد، شيرين عبد الحميد على (مراجع) (ج) العنوان</p>	<p>٨٠٩,٩٣٨</p>
<p>رقم الإيداع ٢٠١٠/١٩٣١٨ الترقيم الدولي 3 - 311 - 704 - 977 - 978 I.S.B.N. طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية</p>	

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

7 مقدمة المترجم
11 الفصل الأول: الصمت
19 الفصل الثانى: يقظة الروح
27 الفصل الثالث: أصحاب البصيرة
33 الفصل الرابع: علم الأخلاق الصوفى
39 الفصل الخامس: عن النساء
47 الفصل السادس: روسبروك العجيب
59 الفصل السابع: إيمرسون
69 الفصل الثامن: نوقاليس
77 الفصل التاسع: المؤسسة اليومية
87 الفصل العاشر: النجم
97 الفصل الحادى عشر: الطيبة الخفية
105 الفصل الثانى عشر: الحياة العميقة
115 الفصل الثالث عشر: الجمال الداخلى

مقدمة المترجم

ألف هذا الكتاب الكاتب البلجيكي الأصل "موريس مايتزلنك"، الذي صاغ أعماله باللغة الفرنسية، وقد وُلد في مدينة جاند ببلجيكا سنة ١٨٦٢م، ومات سنة ١٩٤٩م في مدينة نيس الفرنسية، وحصل على جائزة نوبل للآداب سنة ١٩١١م، ومنحه الملك البير Albert لقب نبيل سنة ١٩٣٢م، وهو أديب يجمع بين الرمزية والفلسفة والتصوف في كل كتاباته، ويعتبر "مايتزلنك" شاعراً ومؤلفاً مسرحياً وباحثاً في الوقت نفسه، فقد ألف أكثر من خمس وعشرين مسرحية، وخمس عشرة دراسة وأربعة كتب ذات طابع علمي، وقام بترجمات لأعمال «روى بروك» "Ruysbrock"، و"نوفاليس" "Novalis"، وجون فورد "Jhon Ford"، وشكسبير، بخلاف قيامه بكتابة مقدمات لأعمال إيمرسون "Emerson"، و"سنيكا" و"سالازار".

وتتنسب عائلته إلى البورجوازية الفلاماندية في بلجيكا، وقضى طفولته متنقلاً بين مسقط رأسه وبين ضيعة أسرته في "أوستاكر"، حيث كرس أبوه نفسه لزراعة الزهور والأشجار المثمرة.

وبعد أن درس العلوم الإنسانية في مدرسة "سان برب" في مدينة "جاند"، قام بدراسة القانون ثم ذهب إلى باريس واختلط فيها بالأوساط الأدبية، ونشر سنة ١٨٨٩م أول ديوان شعري له ثم اقتحم بعد ذلك مجال المسرح الرمزي، الذي تميز بروح الغموض والبلاغة في الأسلوب.

ثم توالى بعد ذلك أعماله الفلسفية الرمزية والصوفية، التي يتحدث فيها عن قوى علوية لا يمكن تفسيرها، وعن الموت الذي لا يعرف أحد ما إذا كان يخفى شيئاً آخر غير العدم.

ونلاحظ في كتاب "كنز البسطاء" "le Trésor des humbles"، الذي صدر سنة ١٨٩٦م والذي قمنا بترجمته إلى اللغة العربية، أن الكاتب يحاول أن يكتشف فيه الطرائق التي تؤدي إلى حياة علوية. ويحتار النقاد في أن يسموه متصوفاً أم فيلسوفاً خاصة وأنه يبدو فيه كأنه شاعر يدعو إلى الجوانب المعنوية، التي تميز بها "بلوتون" "Pluton" ونوفاليس Novalis أو "روسبرك" "Ruysbroek"، الذين يدعون إلى أن نعرف أنفسنا ونحاول أن نفهم الآخرين.

وفي هذا الكتاب "كنز البسطاء" يحدثنا "مايتزلنك" عن الإخلاص والحب دون أن يحسم ما يحيط بنا من غموض وألغاز، ولا يقدم "مايتزلنك" أى آراء قطعية، لكنه يبدى أفكاراً عن المعجزات والفضائل، ووجود الذات والعواطف والفكر الصافي. وفلسفته في كتاب "كنز البسطاء" تعتمد على موهبته في تحليل الأحاسيس الغامضة، التي تتجلى في علاقات فكرية غير معروفة، وتظهر في كلامه عن الحياة والموت والصدفة والمستقبل، وعن الله وعن اللانهاية، كما لو كان يطمئن نفسه تجاه القلق والتشاؤم الذي يظهر - بصفة خاصة - في مسرحياته. ويتحرر "مايتزلنك" في كتابه من القيود التي تعوق الرأي؛ ويبدو فيه كأنه في صراع مستمر، كي يكتشف النور والحقيقة. وهو في هذا يطرح أسئلة أكثر مما يقدم إجابات.

والجدير بالذكر أنه عند صدور كتاب "كنز البسطاء" سنة ١٨٩٦م لاقى نجاحاً كبيراً؛ لأن القراء اكتشفوا في دراساته موضوعات مهمة مثل: الصمت وحوار النفوس والمأساة اليومية وغيرها، وهو ما سمح للكاتب أن يركز انتباهه على وجوه معنوية أثرت فيه بعمق مثل الكتاب السابق ذكرهم.

وقد اخترنا أن نقدم إلى القارئ العربي "كنز البسطاء"؛ لأن "مايتزلنك" - الذي لا يعرفه الكثيرون من العرب - يقدم فيه عملاً مفتوحاً بمعنى أنه يفتح على كل شيء ونقيضه؛ لأن المؤلف حرص على ألا يجد فيه القارئ فكرة توحد ما حولها. ولذلك فهو يتناول في الوقت نفسه حديثاً عن الحرية الإنسانية وحتمية القدر والمثالية المفرطة،

وعن الجوانب الشكّية، والعظمة، وحدود البشرية وقوتها واستكانتها.
وكل ذلك بأسلوب شديد الرصانة، بل والصعوبة أحياناً نظراً لاتجاهات الكاتب الرمزية
والفلسفية والتصوفية والفكرية، مما يجعل من ترجمة هذا الكتاب عملاً ثرياً يضاف
إلى مكتبة الترجمات العربية.

المترجم

أ . د . أحمد فؤاد عبد المجيد عفيفي

الفصل الأول

"الصمت"

صاح "كارليل"^(١) قائلاً: ربما يتعين علينا أن نقيم للصمت والكتمان أماكن مقدسة عامة للعبادة. (هذا إذا كانت الأماكن في هذه الأيام مثل تلك التي يشيّد الناس فيها أماكن العبادة المقدسة).

وقد كان كل نوى الشأن الذين عرفتهم - وليس "جيوم"^(٢) لوتاسيترن وحده، ومنهم من كان أقل كياسة، وأقل تحسباً للأمور منه، يمتنعون عن الثثرة فيما كانوا يخططون له أو فيما يُدعونه.

وأنت أيضاً حاول أن تمسك لسانك لمدة يوم عندما تشعر بالحيرة بعض الشيء، وفي اليوم التالي ستري كيف صارت أهدافك، وواجباتك أكثر وضوحاً.

ومادمت لم تدخل الضوضاء غير المفيدة من الخارج، فلن تجد النفايات والروائح الكريهة إلى نفسك سبيلاً.

وليست الكلمة - في الغالب الأعم - هي فن إخفاء الفكرة كما تقول اللغة الفرنسية، لكنها هي فن إخماد الفكرة وتعليقها بحيث لا يظهر منها شيء يتعين إخفاؤه،

(١) كارليل: هو توماس كارليل: مؤرخ وكاتب إنجليزي. ولد عام ١٧٩٥م، وتوفي عام ١٨٨١، وقد تأثر بالمثالية الألمانية، وشغف بسيرة الأبطال، وكتب رواية طويلة عن سيرته الذاتية، وكتاباً عن تاريخ الثورة الفرنسية. (المترجم)

(٢) جيوم: هو جيوم الأول دي ناصو. وُلد في هولندا سنة ١٥٢٣، ومات سنة ١٥٨٤، وأطلق عليه لقب لوتاسترن، ومعناها قليل الكلام. (المترجم).

ورغم أن الكلمة عظيمة هي الأخرى؛ فإنها ليست أعظم شيء، ويؤكد أحد النقوش السويسرية أنه إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب، والأخرى أن نقول إذا كان الكلام هو الزمن؛ فإن الصمت هو الخلود. وإذا كان النحل لا يعمل إلا في الظلام، كذلك الفكر لا يعمل إلا في الصمت، وتعمل الفضيحة في الخفاء.

ولا يجب أن نعتقد أن الكلام يستخدم على إطلاقه في التواصل الحقيقي بين الكائنات، إذ يمكن للشفاه واللسان أن يعبرا عن النفس بالطريقة نفسها التي يُعبر بها الرقم الرمزي أو الرقم التسلسلي عن لوحة زيتية للرسام "مملنك" Memlinck على سبيل المثال. والواقع أنه عندما يكون لدينا ما نقوله لأنفسنا، فإننا نضطر إلى السكوت. وإذا قاومنا - في هذه اللحظات - المُقتضيات غير المرئية والعاجلة للصمت، فإننا نكون بذلك قد أحدثنا خسارة فادحة لا يمكن أن تُعوضنا عنها أكبر كنوز الحكمة الإنسانية، لأننا نكون قد فقدنا فرصة الاستماع لنفس أخرى، وفرصة إعطاء لحظة وجود لأنفسنا. وهناك كثير من مناحي الحياة، لكن الفرص لا تتكرر مرتين.

ونحن لا نتحدث إلا في الساعات التي لا نحيا فيها أو في اللحظات التي لا نريد فيها أن نرى إخواننا، أو في تلك التي نشعر فيها بمسافة كبيرة بيننا وبين الواقع. وبمجرد أن نتحدث يُخبرنا شيء ما أن الأبواب الإلهية تُغلق في جانب منها. ونحن بخلاء جداً فيما يتعلق بالصمت، وأكثرنا حذراً لا يمتنعون عن الكلام عند أول قادم لهم. وتُخبرنا غريزة الحقائق الخارقة للقدرة الإنسانية، والتي نمتلكها جميعاً، أنه من الخطورة أن يصمت المرء مع من لا يريد معرفته أو محبته، لأن الكلمات تسري بين الناس، لكن الصمت عندما يتفعل، لا ينمحي أبداً إذا ما أُتيحت له الفرصة. ولا تُصنع الحياة الحقيقية التي تترك أثراً لها إلا في الصمت. وأعلم أنه في ظل هذا الصمت، الذي يجب أن نلجأ إليه حتى يشرح نفسه بنفسه، والذي لو أُعطيت له فرصة النزول للحظة إلى نفسك حتى الأعماق التي تسكنها الملائكة، والتي تُفكر فيها في كائن تُحبه بعمق، لن تتذكر الكلمات التي قالها أو الحركات التي فعلها، لكن ستتذكر لحظات الصمت التي عشتها معه،

لأن نوعية هذه اللحظات هي وحدها التي أظهرت صفة حُبكما ونفسيكما، وأنا لا أقترِب هنا إلا من الصمت الإيجابي، لأن الصمت السلبي ليس إلا انعكاساً للنوم أو الموت أو لعدم الوجود. إننى أتحدث هنا عن الصمت الذى ينام ويكون أقل إفزاعاً وهو فى نومه من الكلام، لكن ظرفاً غير متوقع يمكن أن يوقظ هذا الصمت فجأة، ويكون هذا الظرف بمثابة شقيق له يمثل الصمت النشيط الكبير الذى يتوج به نفسه.

وينبغى أن نحذر، فهناك نفسان تصعدان معاً، وستتهار السواتر وتتهدم الجسور، وستفسح الحياة العادية المكان لحياة يصبح فيها كل شىء جاداً جداً بلا أى دفاع، ولا يكون هناك من يجرو على الضحك أو الطاعة أو النسيان.

ويحدث ذلك لأن أياً منا لا يجهل تلك القوة الغامضة والأعيبها الخطيرة، التى تبعث فينا خوفاً شديداً جداً من الصمت، حيث إننا نتحمل بالكاد الصمت المنعزل، أى صمتنا نحن، لكن صمت الكثيرين والصمت المتعدد، خاصة صمت العامة، يعتبر عبئاً لا تفسير له، ونحن نستهلك جزءاً كبيراً من حياتنا فى البحث عن الأماكن التى لا يسودها الصمت، فبمجرد أن يتقابل اثنان أو ثلاثة فإنهم لا يفكرون إلا فى إبعاد هذا العدو الخفى، فكم من علاقات صداقة معتادة لا تُبنى إلا على كراهية الصمت. وإذا نجح المرء رغم كل الجهود فى أن ينخرط بين كائنات مُجتمعة، فإنها ستدير رأسها بقلق إلى الناحية الرسمية من الأمور التى لا يلمحها أحد، ثم سرعان ما تغادر هذه الكائنات تاركة المكان للمجهول، وستتحاشى بعضها بعضاً فى المستقبل لأن تعاقب الأجيال سيكون مرة أخرى بلا جدوى، خشية أن يأتى جيل لا يكون من تلك التى تفتح الباب خلسة للخصم.

ومعظمنا لا يفهم ولا يقبل الصمت إلا مرة أو مرتين فى حياته، ولا يجرو على استقبال هذا الضيف الذى لا يمكن اختراقه إلا فى المناسبات الرسمية، ويستقبله عندئذ معظم الناس بكل احترام، لأن أكثر الناس بؤساً لديهم فى حياتهم لحظات يعرفون فيها كيف يتصرفون، كما لو كانوا يُدركون من قبل ما تُدركه الآلهة، ولتتذكر اليوم الذى تعرفت فيه - دون خوف - على أول لحظة صمت. لقد دقت الساعة المُفرعة

وأنت إلى مقدمة نفسك. وقد رأيت الصمت يصعد من مزلق الحياة التي لا يعرفها أحد، ومن أعماق البحر الداخلى للجمال أو للفرع، ولم تُسرِع أنت إلى الهرب. وكان ذلك بمثابة عودة للاستعداد للرحيل فى غمرة فرح كبير بجوار موت أو شبه تعاسة. تذكر هذه الدقائق التي تنكشف فيها جواهر خفية، وتقفز فيها الحقائق المغمورة. قل لى عندئذ ما إذا كان الصمت حسناً وضرورياً، وما إذا كانت مُداعبات العدو المُستمرّة المتتابعة ليست إلا مُداعبات ربانية. وإذا كان الصمت لا يُعَانِقنا إلا فى وقت التعاسة على الأخص، فإن عناق الصمت التعس لا يمكن أن ينسى نفسه، ولذلك فإن من ذاقوا العناق أكثر من غيرهم، يزيد قدرهم عن الآخرين، لأنهم ربما يعرفون وحدهم على أى مياه ساكنة وعميقة تتركز قشرة الحياة اليومية الضعيفة. لقد تقاربوا من الله أكثر، فضلاً عن أن الخطوات التي خطوها بجانب الأنوار هى خطوات لن تبور؛ لأن الروح قد لا يمكن أن تصعد لكن لا يمكن أبداً إنزالها. ولا زال "كارليل" يصيح قائلاً:

«الصمت.. إمبراطورية الصمت العظيمة».

لقد عرف كارليل جيداً إمبراطورية الحياة، التي تحملنا إلى «ما فوق النجوم، وإلى أعماق ما يحملنا إليه الموت»!

إن صمت النبلاء من الناس المتفرقين هنا وهناك، كل فى إقليمه، مُفكراً فى صمت، وعاملاً فى صمت لا تنتشره صُحف الصباح، وهم يُعتبرون بمثابة ملح الأرض نفسه، كما أن البلد الذي لا يوجد فيه مثل هؤلاء الناس أو يقل وجودهم فيه لا يُعتبر بلداً يسير فى الطريق الصحيح. إنها غابة ليس لها جذور، تحولت كلها إلى أوراق وغُصون، وسيتعين عليها - بعد قليل - أن تذبل وبالتالي لا تصبح غابة.

لكن الصمت الحقيقى العظيم الذي يصعب الاقتراب منه أكثر من الصمت المادى الذي يُحدثنا عنه "كارليل"، ليس أحد تلك الآلهة التي يمكن أن تتخلى عن البشر. إن هذا الصمت يُحيط بنا من جميع الجهات، وهو أساس حياتنا الخفية، وما أن يقوم أحدها وهو يرتعش يدق أحد أبواب الهاوية، فإن الصمت الواعى نفسه هو الذي يفتح لنا دائماً هذا الباب. وهنا أيضاً نكون جميعاً متساوين أمام أمر ليس له مقياس.

ويكون الصمت هو الملك أو العبد، فى مواجهة الموت، أو الألم أو الحب بالوجه نفسه. ويخفى هذا الصمت تحت عباءته المنيعه كنوزاً متماثلة. والسر فى ذلك هو الصمت، الذى يُعتبر أساسياً وملجأً حصيناً لأرواحنا، هو استحالة فقدانه. ولو قابل أول مولود فى البشرية آخر سكان الأرض فإنهما سيصمتان بالطريقة نفسها فى غمرة المُعانقة أو عند الفزع أو عند الدموع. وسيتعاملان بالطريقة نفسها فى كل ما ينبغى فهمه دون خداع.

ورغم مرور قرون كثيرة، فإنهما سيفهمان فى الوقت نفسه - كما لو كانا قد ناما فى المهد نفسه - ما لا تقوله الشفاه قبل نهاية العالم. وعندما تنام الشفاه تستيقظ الأرواح وتبدأ فى العمل؛ لأن الصمت هو العنصر الملىء بالمفاجآت والأخطار والسعادة التى تمتلك فيها الأرواح نفسها بحرية. وإذا كنت تريد حقاً أن تُسلم نفسك لشخص ما تخشى الصمت معه، فاتركه إلا إذا كان هذا الصمت خشية خوف، أو خشية شح بالحب الذى يتطلع إلى المعجزات. وعندئذ ستكون نفسك على علم بمن تتمسك به، ويوجد أناس لا يمكن لأكبر الأبطال منهم أن يصمت، كما توجد نفوس أخرى ليس لديها ما تخفيه وتترعج - مع ذلك - من تلك النفوس التى تكتشفها.

وهناك نفوس أخرى لا تتمتع بالصمت، بل تقتل الصمت من حولها. وهى الكائنات الوحيدة التى تمر دون أن يلمحها أحد فى الحقيقة، ولا يمكن لهؤلاء البشر أن يعبروا المنطقة الكاشفة، أى المنطقة الكبرى للضوء الحقيقى الأسمى. وليس بوسعنا أن نُكوّن فكرة صحيحة عن شخص لم يصمت قط، إذ ربّما يُقال إن نفسه بلا شكل.

لقد كتب لى أحدهم - ممن كنت أحبهم - قائلاً: «إننا لا نزال نعرف بعضنا بعضاً ولا نتجراً على أن نصمت معاً».

وقد كُنّا نُحب بعضنا بعمق، فى الواقع، إلى درجة كُنّا نخشى معها أن تُصيبنا محنة تفوق قدرات البشر. وفى كل مرة كان الصمت يسود فيها بيننا كان يُعتبر بمثابة ملاك الحقائق العليا ورسول الحب المجهول. أما روحانا فكانتا تبدوان كأنهما تلتمسان الصفح، وتتمنيان أيضاً بضع ساعات من الأكاذيب البريئة، أو بضع ساعات من الجهل أو بضع ساعات من الطفولة.

ومع ذلك كان يلزم أن تأتي ساعة الصمت لأنها - بالنسبة لى - شمس الحب التى تُنضج ثمار النفس كما تُنضج الشمس الأخرى ثمار أرضنا.

ولا يخشى الناس الصمت بلا سبب، لأن أحداً لا يعرف أبداً على أى وجه ستكون صفة الصمت الذى سيحدث.

وإذا كانت الكلمات تتشابه، فإن أنواع الصمت تختلف. وفى معظم الأحيان تعتمد الأقدار على نوعية أول لحظة صمت بين روحين. ويحدث الخلط فى المفاهيم، ولا يعرف أحد أين سيحدث مثل هذا الصمت، لأن مستودعاته تفوق مستودعات الفكر، كما أن الصمت غير المتوقع يصبح كالمشروب، إما شديد المرارة أو شديدة الحلاوة. ويمكن أن ينتج عن نفسين متساويتين، فى القوة وفى الإعجاب بهما، صمت عدائى، وتنشب بينهما فى الظلمات حرب طاحنة بدلاً من أن تأتي نفس شيطانية لتصمت، بالقدرة الإلهية، مع نفس عذراء.

ولا يمكن للمرء أن يعرف شيئاً مقدماً ؛ لأن كل شىء يحدث فى سماء لا تُنبئ به أبداً، ولهذا فإن أرق العشاق يؤخرون غالباً - وحتى الساعات الأخيرة - استكشاف أعماق كيانه، لأنهم يعرفون أيضاً أن الحب الحقيقى يجرف معه أبسط الأشياء وسط الحياة، وأن كل ما يتبقى ليس إلا لعب أطفال حول سياج هذا الحب. لكن سرعان ما تسقط الحواجز وينفتح الوجود، ويكون صمتهم مساوياً لصمت الآلهة التى تسكن فى أعماقهم. وإذا لم يتفاهموا فى لحظة الصمت الأولى، فإن نفوسهم لا يمكن أن تُحب بعضها بعضاً؛ لأن الصمت لا يتجول، وإذا كان يمكنه الصعود أو الوجود بين نفسين، فإن طبيعته لا تتغير أبداً. وإلى أن يموت العشاق سيكون للصمت الوضع نفسه والشكل نفسه والقوة نفسها، التى اكتسبها منذ أن دخل فيها إلى الغرفة أول مرة.

وبقدر ما يسير المرء فى الحياة سيلاحظ أن كل شىء يتم، كما لو كان هناك تفاهم مسبق لا يتحدث أحد عنه بكلمة ولا يفكر فيه. ومع ذلك يعرف الجميع أن هذا التفاهم حدث فى مكان ما فوق رؤوسنا، فليبتسم أقل الناس فاعلية عند المقابلات الأولى كما لو كان قد اشترك من قبل فى تحديد مصير إخوانه.

وفى مجالنا هذا، نجد أنه - حتى أولئك الذين يتحدثون بعمق أكبر - يشعرون أفضل من غيرهم بأن الكلمات لا تُعبر مُطلقاً عن العلاقات الحقيقية أو العلاقات الخاصة بين شخصين.

وإذا كُنتُ أحدثك فى هذه اللحظة عن أمور خطيرة مثل الحب والموت والقدر، فإننى لا أصل إلى الموت أو الحب أو القدر؛ لأنه على الرغم من كل جهودى، فستبقى بيننا حقيقة لا نتحدث عنها، قد تكون هى الحقيقة الوحيدة التى لم تظهر رغم أنها تعيش للحظة بيننا، ولم نستطع أن نتركها لنُفكر فى غيرها.

إنها حقيقة الموت والقدر والحب، التى لم نستطع أن ندركها إلا فى الصمت، وليس فى شىء آخر سوى الصمت.

وقد قالت طفلة فى إحدى الحكايات الخرافية عن الجن:

«يا أخواتى.. إن لكل منكن فكرها الخفى، وأريد أن أعرف هذا السر».

ونحن أيضاً نمتلك شيئاً نريد أن نعرفه، لكنه يختفى إلى أعلى مثل الفكرة الغامضة... إنه صمتنا السرى. والتساؤلات هنا لا جدوى منها ؛ لأن أى تحرك للفكر سيكون عقبة فى سبيل الحياة الأخرى التى تُوجد فى الخفاء. ولكى نعلم ما هو موجود فى الحقيقة، يجب تدعيم الصمت فيما بيننا ؛ لأنه بالصمت وحده تنفتح للحظة زهور غير متوقعة وخالدة يتغير شكلها ولونها طبقاً للنفس الموجودة بقربها.

وتزن النفوس نفسها بالصمت مثلما يوزن الذهب والفضة بعد غمرهما فى الماء النقى، ولا تكتسب الكلمات التى ننطق بها معناها إلا بفضل الصمت الذى تنغمس فيه.

ولو قُلت لأحد ما إننى أحبه، فربما لا يفهم ما سبق أن قُلته لألف غيره. وإذا كُنتُ أحبه، فى الواقع، فإن الصمت الذى سيحدث، سيظهر إلى أى مدى تنغمس جذور كلمة الحب اليوم، والتى سينتج عنها بدورها تأكيد صامت لهذا الحب. ولن يكون هذا الصمت وهذا التأكيد متماثلين لمرتين فى حياة واحدة.

أليس الصمت هو الذى يعرف ويحدد طعم الحب؟! ولو حُرِمَ الحب من الصمت، فلن يكون له طعم ولا رائحة مُطلقاً. من منا لم يعرف هذه الدقائق الصامتة التى قد تفصل بين الشفاه لتجمع النفوس!؟

يجب أن نبحث عن هذه الدقائق بصفة مُستمرة، ولا يوجد صمت أحلى من صمت الحب. وهذا الصمت من خصائصنا وحدنا.

أما أوجه الصمت الرهيب الأخرى مثل صمت الموت والألم والقدر، فإنها ليست لنا وإن كانت تجيء إلينا من أعماق الأحداث فى الساعة التى نختارها.

والذين لا يتعرضون لها ليس لديهم ما يلامون عليه، لكننا نستطيع أن نخرج لملاقاة صمت الحب بأنواعه المنتظرة صباحاً ومساءً على عتبة البيت، ولهذه الأنواع جمال مثل جمال مثيلاتها من الأنواع الأخرى، والتى بفضلها يُمكن أن يعيش أولئك الذين لم يعرفوا البكاء مع باقى النفوس الشاعرة بالتعاسة الشديدة.

ولذلك فإن الذين يحبون كثيراً يعرفون أيضاً أسراراً لا يعرفها الآخرون، لأنه يوجد، فى الجانب الخفى من الصداقة والحب العميق الحقيقى، آلاف وآلاف من الأشياء التى لا يُمكن لشفاه أخرى أن تكتمه....

الفصل الثانى

"يقظة الروح"

ربما سيأتى وقت - وأمر كثيرة تتنبأ بقربه - سيأتى وقت نتأمل فيه أرواحنا نفسها دون تدخل من حواسنا. ومن المؤكد أن مجال الروح يتسع كل يوم أكثر فأكثر، وتكون الروح أكثر قرباً من كياننا المرئى ويتزايد إسهامها فى أعمالنا كما حدث منذ قرنين أو ثلاثة. وقد يُقال إننا نقترّب من فترة روحية، حيث يوجد فى التاريخ عدة مراحل مشابهة، خضعت فيها الروح لقوانين غير معلومة. وإذا صح القول، فإنها ترتقى إلى سطح البشرية، ويتبين - بشكل مباشر - وجودها وقوتها. ويمكن أن تتكشف هذه القوة بالآلاف الطرائق المختلفة غير المتوقعة. وفيما يبدو كانت الإنسانية على وشك أن تتخلص قليلاً من حمل المادة الثقيل بحيث يسود فيها نوع من المواساة الروحية، وتصبح قوانين الطبيعة - الأكثر تشدداً والأكثر صرامة - مرنة بشكل أو بآخر، ويكون الناس أكثر قرباً من أنفسهم ومن إخوانهم، وسينظرون إلى أنفسهم ويحبونها بجدية وخصوصية أكبر؛ ذلك لأنهم سيفهمون بكل رقة وعمق الطفل والمرأة والحيوانات والنباتات والأشياء الأخرى. وقد لا تكون التماثيل والرسومات والكتابات التى تركوها لنا كاملة، لكنى لا أعرف أية قوة وأى جمال خفى يوجد فيها ويعطيها حيوية مستمرة إلى الأبد. وللكائنات نظرات أخوة وأمال غامضة. ونجد إلى جانب الآثار العادية للحياة التى توجد فى كل مكان آثاراً غير واضحة لحياة أخرى لا يفسرها أحد. وما نعرفه عن مصر القديمة، يسمح لنا أن نفترض أنها قد مرت بواحدة من هذه الفترات الروحية، كما أنه فى عصر قديم جداً من تاريخ الهند، كان على الروح أن تقترب من سطح

الحياة بدرجة لا تتجاوزها أبداً، وما تبقى من وجودها المباشر أو ذكرياتها لا يزال يبين - حتى اليوم - ظواهر عجيبة. وفي لحظات أخرى، يبدو العنصر الروحي كأنه يصارع الإنسانية في أعماقها مثلما يصارع الغريق مياه نهر عظيم.

وتذكروا - على سبيل المثال - فارس والإسكندرية وقرنين دينيين في العصور الوسطى. وفي المقابل، توجد قرون بأكملها يسود فيها الذكاء والجمال بكل نقائه، لكن لا تظهر فيها الروح مطلقاً. ولذلك، فإن الروح كانت شديدة البعد عن بلاد الإغريق وروما، وعن القرنين السابع العشر والثامن عشر في فرنسا، كما إنها بعيدة على الأقل من سطح القرن الأخير؛ لأن "كلود دي سان مارتان Claude de Saint Martin" و"كاجليسترو Cagliostro" - وهو أشد صرامة مما نظن - و"بسكاليس Pascalis"، وكثير غيرهم مازالوا يخفون عنا أسراراً كثيرة عن أعماق هذه الروح.

ولا نعرف لأمر ما، لماذا انقطعت العلاقات الخفية بين الأرواح؟ ولماذا أغلق الجمال عيونهم؟ ومن الصعب جداً أن نعرب هنا بالكلمات عن الأسباب، التي من أجلها لا يبدو معها المصير أو القدر، الذي يحيط بالمسرحيات اليونانية ويعبر عن ماهية مناخ الروح. وفي أفق هذه المسرحيات التراجمية الجديدة بالإعجاب، نكتشف سرّاً دائماً وجديراً بالاحترام، لكنه ليس السر الأخوى الرقيق النشيط الذي نراه - في كثير من أعمال أخرى - أقل أهمية وأقل جمالاً. ونتساءل فيما بيننا، عما إذا كان "راسين Racine" هو شاعر قلب المرأة بلا منازع، لكن من يجرؤ أن يقول لنا إنه تقدم خطوة نحو روحها؟ بماذا ستجيب لو سألتك عن روح "أندروماك Andromaque" أو "بريتانكوس Britannicus"؟ خاصة وأن شخصيات راسين لا تتفاهم فيما بينها إلا بقدر ما تعبر عنه، وليس ثمة كلمة تخترق جسراً بحرياً بينهم. فهم شديدي الوحدة مع أنفسهم على سطح كوكب ما لم يعد يدور في السماء. وهم لا يمكنهم الصمت، إذ ربما لا يوجدون فيما بعد. وليس لهم مبدأ غير مرئي، وقد يعتقد البعض أن ثمة مادة عازلة تقف حائلاً بينهم وبين فكرهم، وبين الحياة التي تتعلق بكل ما هو موجود، وبين تلك الحياة التي لا يحدث تأثيرها إلا في لحظة عابرة من عاطفة أو ألم أو رغبة. والحقيقة، أنه انقضت قرون نامت فيها النفس دون أن تثير قلق أى شخص. أما اليوم، فإنه من الواضح أن الروح تبذل

جهوداً كبيرة حتى تظهر فى كل مكان بشكل غير معتاد أو بشكل عشوائى، كى تفرض نفسها كما لو كان صدر إليها أمر بذلك، أو لم يعد لديها وقت تضيقه، إلا أن ذلك يستلزم أن تعد نفسها لمعركة حاسمة، لا يمكن لأحد أن يتنبأ بما يترتب عليها من انتصار أو فرار. وقد لا تكون الروح قد استجمعت قواها المختلفة، التى لا يمكن معها المقاومة أبداً.

وقد يقال إن الروح تحصر نفسها فى جدار غير مرئى بحيث لا يعرف أحد ما إذا كان هناك احتضار لها، أو حياة جديدة تبعث فيها. ولن أتحدث عن القوى الخفية التى تستيقظ حولنا، أو عن الجاذبية وتوارد الخواطر والترفع، أو عن الخصائص المؤكدة للمادة المشعة أو عن ألف مظهر آخر من تلك التى تهز العلوم الرسمية، لأن هذه الأشياء معروفة من الجميع ويمكن ملاحظتها بسهولة، بل إنها قد لا تعتبر شيئاً إلى جانب ما يبدو فى الحقيقة، لأن النفس مثلها مثل النائم الذى ينهض من أحلامه ويبذل جهداً كبيراً، كى يحرك ذراعاً أو يرفع جفنًا.

وفى مناطق أخرى حيث يقل انتباه الجماهير، تتحرك الروح بشكل أفضل، رغم أن حركتها لا تكون محسوسة بشكل كبير فى نظر من لم يتعود على الرؤية. أليس يُقال إن صوت الروح على وشك أن يخترق بصيحة كبيرة آخر أصوات الخطأ، التى لا تزال الموسيقى تغلفه. ألا يشعر المرء بثقل الحمل المقدس لوجود ما غير مرئى فى أعمال بعض الرسميين الأجانب؟ وأخيراً ألا نلاحظ فى الآداب أن بعض القمم تشع هنا وهناك ضوءاً تختلف طبيعته عن أغرب الأضواء فى الآداب السابقة؟ إننا نقترّب من تغيرات لا أعرف كونها من الصمت، ومن التسامى الإيجابى الذى ساد حتى اليوم والذى يبدو على وشك الانتهاء، ولا أتوقف عند هذا الأمر، حيث إنه من المبكر جداً أن أتحدث بوضوح عن هذه الأشياء، وإن كنت أعتقد أنه نادراً ما تكون هناك فرصة ملحة أمام إنسانيتنا لتتحرر روحياً. بل إنه فى بعض اللحظات يتشابه الأمر كأنه إنذار. ولذلك، فإنه من المهم ألا نغفل شيئاً كى ننتهز هذه الفرصة، التى ستهددنا، التى تشبه طبيعة الأحلام التى تذهب بلا عودة إن لم يدركها المرء فوراً ويجب أن نكون حذرين،

لأن روحنا لا تتحرك دون سبب. لكن هذه الحركة التي لا نلاحظها إلا على قمم الجبال المرتفعة الافتراضية للوجود، ربما تظهر أيضاً دون أن يشك أحد فيها، في أكثر الدروب الاعتيادية للحياة، لأنه لا توجد أي زهرة تتفتح على هذه المرتفعات دون أن ينتهي بها الأمر إلى السقوط في الوادي، ولا أعرف، فربما تكون قد سقطت من قبل. ألا تلاحظ دائماً في الحياة العادية وبين أبسط الكائنات وجود علاقات غامضة، ومباشرة وظواهر روحية وتقارب في الأرواح لم يكن ممكناً الحديث عنها في أزمنة أخرى، فهل كانت هذه العلاقات غير معروفة قبلنا؟ يجب أن نصدق ذلك؛ لأنه في جميع العصور، كان هناك من ذهبوا إلى عمق أكثر العلاقات سرية في الحياة، ونقلوا إلينا ما تعلموه عن القلوب والعقول والأرواح في زمنهم. ومن المحتمل أن هذه العلائق نفسها كانت لا تزال موجودة عندئذ، لكن ليس بوسعها امتلاك القوة الحديثة والعامة التي توجد لها في هذه اللحظة، ذلك لأن هذه العلاقات لم تكن قد تغلغلَت إلى عمق الإنسانية، لأنها دون هذا التغلغل، توقف نظرات الحكماء إليها، حيث صمتوا عنها. ولم أتحدث هنا عن (الروحانية العلمية)، وعن مظاهرها في توارد الخواطر أو في المادية، أو في المظاهر الأخرى التي سأحصىها الآن، ذلك لأن الأمر لا يتعلق بمجرد أحداث.

دخلت النفس وأحدثت قتامة للكائنات التي نسيت حقوقها الأبدية تماماً، وهناك سيكولوجية أخرى غير السيكولوجية المعتادة، التي اتخذت اسم *Psyché* (بسيشه) غير أنها في الحقيقة لا تهتم إلا بالمظاهر الروحانية الضيقة المتعلقة بالمادة. وباختصار، يتعلق الأمر بما ينبغي أن تظهره لنا السيكولوجية الشفافة، التي تنشغل بالعلاقات المباشرة بين روح بشرية وأخرى وبين الإحساس والوجود غير المعتاد لروحنا.

وقد بدأت بالكاد تلك الدراسة التي تسمو بالإنسان، والتي ستجعل السيكولوجية البدائية، التي سادت حتى الآن غير مقبولة. ويشمل علم النفس المباشر أكبر الأشياء وأصغرها، ويلاحظ وجوده حتى في أقل الكتابات قدراً. وليس هناك ما يدل بوضوح كبير على أن الضغط، الذي تمارسه الروح قد تزايد نموه بالإنسانية بصفة عامة، أو أنه قد انتشر في فاعليتها الغامضة. وسنتعرض هنا لأمر قد يعجز الإنسان عن وصفها بحيث لا يمكن للمرء أن يعبر عنها إلا بأمثلة غير كاملة أو غير دقيقة. وأنا أقدم هنا

مثالين أو ثلاثة بصفة أولية، ففي الماضي كان الحدس والانطباع عن مقابلة أو نظرة أو قرار يتخذ من جهة غير معلومة من العقل البشرى، أو مداخلة أو قوة لا تفسير لها وإن كانت مفهومة أو قوانين خفية للاستلطاف أو للسماجة أو للمشاعر الفطرية، أو المكتسبة أو تأثيرات لأمر لا يمكن الحديث عنها، كل ذلك كان يحدث لبرهة.

ولن نتوقف هنا عند هذه المشكلات التي تفرض نفسها لتسبب قلقاً للمفكر، ولا يبدو أننا نقابلها إلا بمحض الصدفة. وليس هناك شك في أهميتها الدينية، التي تسيطر باستمرار على الحياة، وتدفع الناس إلى العودة إلى التفاعلات المعتادة للمشاعر والأحداث الخارجية.

ويقلق أصغر الناس اليوم من تلك المظاهر الروحية، التي كان ينشغل بأكبرها وأكثرها إثارة للفكر إخواننا فيما سلف. وذلك يبرهن مرة أخرى على أن النفس البشرية هي بمثابة نبات يتمتع بوحدة كاملة، لأن كل فروعها تزدهر في الوقت نفسه حين يجيء الآوان. وربما يعبر الفلاح، الذي يمتلك موهبة التعبير عما يجيش في نفسه، عن أشياء لا توجد لدى نفسية "Racine راسين". وهكذا فإن رجالاً نقل عبقريتهم عن عبقرية شكسبير، أمضوا حياة مضيئة لا يعلمها أحد وإن كان أساتذتهم قد عرفوها ولم تكن بالنسبة إليهم سوى انتكاسة، إذ إنه لا يكفي أن تتفاعل النفس الكبيرة المنطوية هنا أو هناك مع الزمان أو المكان، لأن الناتج من هذا التفاعل لن يكون كبيراً، إذا لم يقد أحد بمساعدتها.

ويتعين أن تصل النفس إلى اللحظة التي تثير قلق محيط الأرواح كلها، وإذا جاءت لحظة النعاس؛ فإن تلك النفس لن تتحدث عن أحلام النوم.

وقد سار "هاملت Hamlet"، وهو مثال مألوف لدينا في مسرحية "Elseneur السينير" حتى اللحظة التي كان فيها على وشك الاستيقاظ، ومع ذلك، ورغم العرق البارد الذي كان ينزل من جبهته الشاحبة، فقد كانت توجد كلمات لا يستطيع التحدث بها إلينا وإن كان يمكنه بلا شك أن ينطق بها اليوم، لأن ما يمر به من نفس متشردة أو متلصصة، يساعده على الكلام. وقد يتلعثم هاملت حالياً إذا نظر إلى "كلوديوس Claudius".

أو إلى أمه ما لم يعلم أنه لا يمكن للأرواح - فيما يبدو - أن تنفلق على نفسها وتضع السواتر. والواقع أن تلك حقيقة مقلقة وغريبة. ألا تعلم أيها الإنسان أنه إذا لم تكن طيباً، فإن من المرجح أن تزيد معرفتك لهذه الحقيقة مائة مرة عما كانت منذ قرنين أو ثلاثة؟ ألا تعلم أنك لو أحزنت نفساً واحدة هذا الصباح، فإن الفلاح الذي يتحدث معه عن العاصفة والأمطار كان يعرف ما ستقول له من قبل ولو كان لك وجه قديس أو شهيد أو بطل، فإنك لن تستطيع أن تعرف ما فى عين الطفل الذى يرمقك بنظرة لا تستطيع تفسيرها أو الوصول إليها إذا كانت عندك فكرة سيئة أو ظلم أو دموع ذرفها أخ لك، حيث إنه من المحتمل أن تكون روحه قد مرت منذ مائة سنة بجوار روحك التى لا تنتبه إليه...

وفى الحقيقة، فإنه من الصعب أن توجد فى قلب المرء - بعيداً عن النظرات - كراهية أو حسد أو خيانة؛ لأن نفوساً كثيرة ستأخذ حذرهما من وجودنا، ولم يحدثنا أجدادنا عن حدوث مثل هذه الأمور. إلا أننا نلاحظ أن الحياة التى نتفاعل معها تختلف تماماً عن تلك الحياة التى صوروها.

فهل خدعونا أم أنهم كانوا لا يعرفونها. ذلك لأن الإشارات والكلمات لم تعد تصنع شيئاً، لأن كل شىء يتكرر فى الأوساط الروحية التى يوجد فيها شىء مجرد.

وبدورها، فإن الإرادة القديمة والعتيقة التى نعرفها جيداً، وهى منطقية جداً، فهى تتغير وتتأثر بالاتصال المباشر بالقوانين التى لا تفسير لها رغم عمقها. ولم نعد نجد ملجأً نلجأ إليه أو نلاحظ تقارباً بين الناس، حيث أخذوا يحكمون على أنفسهم بظاهر القول وبظاهر الأعمال بل وحتى بظاهر الأفكار، لأن ما يرونه دون فهم له يتجاوز مجال الأفكار. وتلك هى إحدى العلامات الكبرى التى نشهد فيها الفترات الروحية التى أتحدث عنها أحياناً. ونشعر، من جميع الجهات، أن علاقات الحياة العادية بدأت فى التغير، كما أن من أصغر منا يتحدثون ويتصرفون بطريقة تختلف عما كان يفعله الناس فى جيل سابق. وقد سقطت مجموعة من الحواجز والغرف والوسائط غير المفيدة إلى الهاوية، ولم نعد نستطيع الحكم عليها تقريباً، ولا ندرك شيئاً إلا من خلال ما هو غير مرئى.

ولو دخلت إلى حجرتك لأول مرة فلن تنطق بشيء، طبقاً لقوانين علم النفس الأكثر علمية وعمق، وذلك بفعل حكم خفي يصدره إنسان على وجود إنسان آخر. وليس بوسعك أن تذكر لى أين ذهبت لتعرف من أكون، لكنك ستخبرنى ببعض أمور مؤكدة لا يمكنك التعبير عنها، وربما يصدر أبوك على حكمًا مختلفًا قد يكون غير صحيح. ويجب الاعتقاد مع كل ذلك بأن الإنسان سيتواصل قريبًا مع أخيه الإنسان، وإن المناخ سيتغير. فهل قمنا كما يقول الفيلسوف الكبير غير المعروف "كلود دى سان مارتان Claude de Saint Martin" بخطوة أخرى على طريق التعلم المضيء لبساطة الكائنات؟ انظر فى صمت إذ ربما تلاحظ - عما قريب - "همة الألهة".

الفصل الثالث

"أصحاب البصيرة"

يعرفهم معظم الناس ورأتهم تقريباً كل الأمهات، ولا غنى عنهم تماماً مثل الآلم. والذين لم يقتربوا منهم يكونون أقل لطفاً وأقل حزناً وأقل طيبة.

إنهم غرباء ويبدون أكثر قرباً من الحياة من أطفال الآخرين، ولا يتشابهون فى أى شىء ومع ذلك، فإن عيونهم واثقة من نفسها إلى الحد الذى تعرف فيه كل شىء، وتبوح بأسرارها عند كل مساء. وفى اللحظة التى يكون فيها إخوانهم يتحسسون الميلاد والحياة حولهم، يكونون قد تعرفوا على أنفسهم من قبل وهم واقفون فعلاً وأيديهم وأنفسهم على أتم استعداد. وعلى عجل، وبالحكمة والدقة، استعدوا للحياة، وهذه العجلة هى إشارة إلى أن الأمهات تتجرأن بالكاد على النظر دون علمهم بأسرار كل ما يُقال.

وغالباً لا يكون لدينا الوقت لنلاحظهم ؛ لأنهم يذهبون دون أن يقولوا شيئاً، يظلون إلى الأبد غير معروفين لنا، لكن البعض الآخر منها، قد يتأخرون قليلاً وينظرون إلينا وهم يبتسمون وعلى وشك أن يعترفوا بأنهم فهموا كل شىء، وعند سن العشرين يبتعدون بسرعة ويخفون خطواتهم كما لو كانوا قد اكتشفوا للتو أنهم أخطأوا المكان وأن عليهم أن يقضوا حياتهم بين بشر لا يعرفونهم.

وهم أنفسهم لا يقولون شيئاً تقريباً ويحيطون أنفسهم بغلالة فى الوقت الذى يحسون فيه أنهم قد جرحوا، أو فى الوقت الذى يوشك فيه الإنسان على الوصول إليهم. ومنذ بضعة أيام، بدا أنهم موجودون وفجأة وفى هذا المساء كانوا بعدين عنا إلى درجة

أنا لا نجرؤ على التعرف عليهم، ولا على استجوابهم، لأنهم هناك على الجانب الآخر من الحياة تقريباً. ونذكر في النهاية أنها الساعة التي حانت أخيراً، لكي نؤكد فيها شيئاً أكثر جدية وإنسانية وواقعية وأكثر عمقاً من الصداقة والصدفة والحب، وهو أمر يضرب بجناحه - حتى الموت - في أعماق الحنجرة، ونحن نجهله ولا نذكره أبداً، لأنه ليس من المستطاع بعد ذلك أن نذكره؛ لأن كثيراً من النفوس تمضي وقتها في الصمت...

ويمر الوقت بسرعة ومن منا لم ينتظر هكذا إلى اللحظة، التي لا تستطيع أن نقدم فيها جواباً.

لماذا أتوا، ولماذا يذهبون، ألم يولدوا إلا لكي يؤكدوا لنا أن الحياة ليس لها هدف؟ وما فائدة التفاؤل إذا لم يكن يوجد مطلقاً أي رد. وفي مرات عديدة، كنت شاهداً على هذه الأمور، التي كنت قد شاهدها يوماً ما لدرجة أنني لم أعد أعرف أن الأمر يتصل بى أم بشخص آخر، وهكذا مات أحد الأخوة. ربما قيل إنه الوحيد الذي تنبأ بالموت دون أن يعرفه، وذلك في الوقت الذي ربما كنا نعرف فيه شيئاً ما دون أن نتلقى هذا التحذير العضوي، الذي كان خافياً منذ الأيام الأولى. بأي شيء نميز الكائنات التي يؤثر فيها حادث شديد الخطورة؟ لا شيء يُرى وإن كنا نرى كل شيء. إنهم يخافون منا لأننا ننذرهم باستمرار، ورغماً عنا حالما تقترب منهم، يشعرون أننا نتصرف ضد مستقبلهم، أو أننا نخفي أمراً ما عن الكثير من الناس، ونجهل نحن ما نخفيه عنهم. وتحدث بين كائنين يتقابلان للمرة الأولى أسرار عجيبة عن الحياة والموت، وأسرار أخرى ليس لها مسمى لكنها تسيطر في الحال على موقفنا، وعلى نظراتنا وعلى وجهنا وعندما نشد على أيدي صديق يكون في نفسنا فضول لا يتوقف عند عتبة هذه الحياة، وقد يحدث ألا توجد فكرة سيئة بين اثنين من الناس، لكن توجد أمور أكثر أهمية وأكثر عمقاً من الفكر. ونحن لا نسيطر على هذه المعطيات المجهولة، كما أننا نكشف دائماً أمر أي نبي لا يعرف كيف يتحدث - ولا نكون أبداً مع الآخرين كوجودنا معهم في الظلام، كما أن نظراتنا تتغير طبقاً للماضي والمستقبل اللذين يلاحظانهم،

ولذلك فإننا نعيش دائماً فى حالة ترقب، وعندما نقابل أولئك الذين لن يعيشوا، فإنهم لن يكونوا أولئك الذين نراهم، لكن نرى ما سيحدث لهم. وقد يريدون خداعنا ليخدعوا أنفسهم ويفعلوا أى شىء ليضللونا، ومع ذلك، ومن خلال ابتسامتهم وحماسهم للحياة، فإن الأمر يبدو كأنه كان سناً أو سبباً لوجودهم أنفسهم. ومرة أخرى خدعهم الموت، وتبينوا بكل حزن أننا رأينا كل شىء، وأن ثمة أصوات لا يمكنها السكوت.

ومن ذا الذى يتحدث عن قوة الأحداث، وعما إذا كانوا هم نحن أو نحن هم، فهل ولدوا منا أم نحن الذين ولدنا منهم؟ هل نحن الذين نجتذبهم، أم هم الذين يجذبوننا؟ هل نحن الذين نغيرهم، أم هم الذين سيغيروننا؟ ألا يخطئون أبداً؟ لماذا يأتون إلينا مثل النحلة فى الخلية والحمامة فى البرج؟ وأين كان سيلجأ أولئك الذين لن يجدوننا فى الموعد؟ ومن أين سيأتون لمقابلتنا؟ ولماذا يظهرون لنا باعتبارهم أخوة؟ ألا يتحركون فى الماضى أو المستقبل؟ وهل أقوى الناس من ماتوا أم الذين لم يموتوا حتى الآن؟ هل الأمس أو الغد هو الذى يشكلنا؟ من منا لم يقض معظم حياته فى ظل حدث لم يحدث بعد؟ لقد رأيت هذه المواقف الجادة، وهذا السعى الذى كان يبدو أن له هدفاً قريباً جداً، وهل هذا الإحساس المسبق بالبرودة الشديدة، وبهذه العين التى لا تغفل أبداً تتعلق بأولئك الذين ستكون لهم نهاية؟ وعلى من سينقضى الموت من الخارج بلا هوادة، ومع ذلك كانوا يسرعون، مثل إخوانهم الذين يحملون الموت فى ذاتهم. كان لهم الوجه نفسه. وكانت الحياة تبدو لهم أيضاً أكثر جدية من أولئك الذين يتعين عليهم أن يحيا. كانوا يتحركون بثقة وانتباه وصمت. ولم يكن لديهم وقت يضيعونه، فقد كان ينبغى أن يكونوا مستعدين فى الساعة نفسها مادام أنه لا يمكن لنبي أن يتنبأ دون أن يعرفوا فى أى حياة ستكون حياتهم.

إن موتنا هو الذى يوجه حياتنا وليس لحياتنا أى هدف إلا موتنا، وموتنا هو البوتقة التى تجرى فيها حياتنا، التى كونت وجهنا. ولا يجب أن نرسم سوى صور الموتى، لأنهم هم وحدهم يشكلون نواتهم، وينكشفون على حقيقتهم للحظة وما تلك الحياة التى لا تضىء فى الشفافية، وفى ضوء بارد وبسيط يسقط على وسادة الساعات الأخيرة؟ هل هذا الضوء هو نفسه الذى يغطى وجوه الأطفال عندما يتسمون لنا خصيصاً

ويفرضون علينا صمتاً يماثل صمت الحجرة، التى لا يتحدث فيها أحد الأشخاص أبداً، وعندما أتذكر هؤلاء الذين عرفتهم، والذين كان الموت يصطحبهم فى يده، أرى مجموعة من الأطفال والمراهقين والمراهقات الذين يبدو كأنهم خارجون من المنزل نفسه. إنهم بالفعل أخوة وأخوات، وربما يقال إنهم يتعرفون على أنفسهم بعلامات لا نراها نحن، وأنهم يصنعون فى اللحظة التى لم نعد نريهم فيها، إشارة الصمت. إنهم هم الأطفال الذين ينتظرون الموت قبل الأوان، وكنا نميزهم بغموض فى المدرسة، وكانوا يبدو كأنهم يبحثون عن بعضهم ويهربون - فى الوقت نفسه - من أنفسهم مثل أولئك الذين لديهم العجز نفسه. كنا نراهم عن بعد تحت أشجار الحديقة، وكانت لديهم الجدية المختفية نفسها تحت ابتسامة متقطعة أكثر مادية من ابتسامتنا. ولا أعرف ما هو المظهر الذى يخشى فيه المرء من إفشاء سر. وبصفة دائمة تقريباً، كانوا يصمتون عندما كان أولئك الذين يتعين عليهم أن يعيشوا ويقتربوا من جمعهم. هل كانوا يتحدثون بالفعل عن الحادث أو هل كانوا يعلمون أن الحادث يتحدث من خلالهم ورغماً عنهم؟ وهل كانوا يحيطون به بهذا الشكل كى يخفوه عن الأعين غير المكترثة، كانوا يبدو - لبعض الوقت - كأنهم ينظرون إلينا من أعلى برج، وعلى الرغم أنهم كانوا أضعف منا، فإننا لم نكن تجرؤ على أن نزعجهم. ومن الحقيقى أن شيئاً لا يخفى وأنكم جميعاً يا من تقابلوننى تعلمون ماذا فعلت وماذا سأفعل، وأنتم تعرفون فيما أفكر، وفيما فكرت. وتعلمون بالضبط اليوم الذى يتعين أن أموت فيه، لكنكم لا تجدون الوسيلة التى تقولون بها ذلك حتى لو بصوت منخفض أو حتى فى قلوبكم. وقد تعودنا أن نصمت عن كل ما لا تطاله أيدينا، ولو عرفنا كل ما نعلمه لتبينت أمور كثيرة لنا. وإذا كنا نعيش بجانب حياتنا الحقيقية، فإننا نشعر أن أدق أسرارنا وأعمقها لا تعيننا لأننا لسنا شيئاً آخر غير أفكارنا وأحلامنا، ولا نعيش بأنفسنا إلا لبعض الوقت ولمجرد التسلية. متى سيأتى اليوم الذى سنصير فيه على ما نحن عليه. وانتظاراً لقدم ذلك اليوم، فإننا نقف أمام تلك الأمور كما لو كنا غرباء عنها، ذلك لأنها ترعب حياتنا. وأحياناً تصاحبنا هذه الأمور فى الممرات والساحات ونشعر بصعوبة فى متابعتها. وقد تختلط مع ألعابنا، إلا أنه لا يبدو أن اللعبة هى نفسها. ولم يكن البعض يجدون إخوانهم،

فكانوا يسرون وحدهم وسط صيحاتنا، ولم يكن لهم أصدقاء بين أولئك الذين لن يموتوا. ومع ذلك فنحن كنا نحبهم ولم يكن لدينا وجه أكثر صداقة منهم. فماذا كان يوجد بيننا وبينهم، وماذا كان يوجد بيننا جميعاً؟ فى عمق أى بحر من الأسرار نعيش نحن؟ إن هذا الحب يسود هنا، لكن لا يعبر عنه لأنه لا يسهم فى الحياة فى هذا العالم، وربما لا يمكنه أن يحتل أى محنة، إذ يبدو أنه مكشوف فى كل لحظة، كما أنه يبدو أن أقل صداقة عادية يمكن أن تهزمه، ومع ذلك فإن حياته أكثر عمقاً من أنفسنا، وربما يبدو لنا كأنه غير مكرث بنا، لأنه عرف كيف يحتفظ بنفسه لعصور طويلة أكثر أمناً.

وهو لا يتحدث هنا لأنه يعرف أنه سيتكلم فيما بعد، ولا يمكن أبداً اعتبار من تقبلهم بمثابة من نحبهم بعمق. وهكذا يوجد جزء من الحياة - وهو أفضلها وأنقاهها وأعظمها - لا ينخرط فى الحياة المعتادة، ولا تستطيع أعين المحبين أنفسهم أن تخترق - على الإطلاق - هذا الجسر من الصمت والحب.

وبمعنى آخر، هل نتركهم وحدهم لأنهم كانوا أكبر منا رغم أنهم أكثر شباباً؟... هل كنا نعلم أنه ليس لديهم العمر نفسه، وهل كنا نخشى أن يكونوا بمثابة قضاة لنا؟ هل كانت نظراتهم بالفعل أقل حركة من نظراتنا، وإذا كانوا يعتمدون بمحض الصدفة على تحركاتنا فإنها كانت تبدو بلا منطق، ويسود لبرهة صمت غير مفهوم. إننا نعود أدراجنا، وهم ينظرون إلينا ويضحكون بشدة. إننى أتذكر وجه اثنين من بينهما كان الموت ينتظرهما بقوة. ومع ذلك فقد كان الجميع يشعرون أمامهما بالخجل، ويحاولون ألا يراهم أحد. كان لديهم شيء لا أعرفه من الحياء المميت، وكانوا يبدو كأنهم يطلبون العفو عن خطيئة قادمة غير معروفة. كانوا يتقدمون، وتبادلنا نظرة ثم افترقنا دون أن نقول شيئاً كأننا نفهم كل شيء دون أن نعرف شيئاً.

الفصل الرابع

"علم الأخلاق الصوفي"

من الثابت جداً أن الأفكار التي لدينا تعطي شكلاً تعسفياً للحركات غير المرئية للملكات الداخلية، وهناك ألف تأكيد وتأكيد بأن الملكات الخفية هي التي تقودنا خلال وجودنا ولا تستطيع أن نتحدث عنها ؛ لأننا حينما نعبر عن شيء ما، نقلل من شأنه بغرابة، ونعتقد أننا تغلغلنا حتى أعماق الهوآت حتى نصعد مرة أخرى إلى السطح، وإن قطرة الماء التي تلمع عند نهاية أصابعنا الشاحبة لا تكون مثل ماء البحر الذي خرجت منه، ونعتقد أننا اكتشفنا نقطة في الكنوز العجيبة، لكن عندما نعود إلى ضوء النهار، نكتشف أننا لم نحمل إلا أحجاراً مزيفة وقطعة من الزجاج، ومع ذلك، فإن الكنز يظل يلمع في الظلمات دون أن يتغير، ويوجد شيء ما يحجبنا عن أنفسنا وعن روحنا، وفي بعض اللحظات، كما يقول "إيمرسون Emerson" إننا نصل في كل ذلك إلى أن نرغب بشدة في المعاناة، أو معاناة العذاب بأمل أن نجد الحقيقة في النهاية، ونحس بالأطراف الحادة وبزوايا الحقيقة.

ومن جهة أخرى، فقد قلت إن الأرواح تبدو كأنها تتقارب فيما بينها، ولا نجد قيمة إلا القيمة التي يمكن أن يكتسبها انطباع دائم، وإن كان غامضاً، ومن الصعب أن نعتمد على وقائع ؛ لأن الوقائع ليست سوى أنواع من المشردين، والجواسيس أو الذين يقودون قوى كبرى لا نراها؛ ومع ذلك فقد يقال، بشكل أكثر عمقاً مما قاله أباؤنا، إننا نشعر في بعض اللحظات أننا لا نجد أنفسنا إلا عندما نكون وحدنا، وهؤلاء الذين لا يعتقدون في أي إله، لا يتصرفون كغيرهم إلا في نواتهم، كما لو كانوا متأكدين أنهم

سيكونون وحدهم. وهناك مراقبة عامة تجرى بعيداً وفي الظلمات البسيطة لضمير كل إنسان، فهل من الصحيح أن الأوعية الدموية الروحية ليست مغلقة تماماً كما كان الحال في الماضي، وتموجات البحر الداخلية أصبحت أكثر قوة؟ لا أعلم، فكل ما يمكن أن نلاحظه هو أننا لا نعطي الأهمية نفسها لعدد ما من الأخطاء التقليدية، وهذا بالفعل علامة على الغزو الفكري.

ويبدو أن أخلاقنا تتغير وتتقدم بخطأً بطيئاً نحو مناطق أكثر ارتفاعاً، بحيث لا نراها حتى الآن، ربما يكون هذا هو السبب في أن اللحظة قد حانت لنسأل أنفسنا أسئلة جديدة. وعلى سبيل المثال، ماذا يمكن أن يحدث لو صارت ذاتنا مرئية بصفة فجائية؛ بحيث يتعين عليها أن تتقدم وسط مثيلتها من المجتمعات دون أي حواجز، رغم أنها ستكون محملة بأفكارها التي تجذب معها أكثر أعمال حياتها غموضاً، والتي لا يمكن لأحد أن يعبر عنها؟ ومن أي شيء تخجل تلك النفس؟ ماذا تريد أن تخفي؟ هل سيصل بها الأمر إلى أن تصبح مثل المرأة الخجول، التي تلقى على شعرها خطايا جسد لا حصر لها؟ إنها تجهل هذه الخطايا، كما أن تلك الخطايا لم تصل إليها قط؛ لأنها ارتكبت على مسافة بعيدة عنها، وربما تمر روح "سودنيت Sodonite" وسط الناس دون أن تشك في أي شيء، وهي تحمل في عينها ابتسامة صاخبة كابتسامة الطفل، وهي لا تتدخل في شيء وتسير في حياتها نحو الأضواء، ولن تتذكر إلا هذه الحياة وحدها.

ما هذه الخطايا والجرائم المعتادة، التي ربما استطاعت أن ترتكبها؟ هل خانت أو خدعت أحداً أو كذبت؟ هل سببت معاناة لأحد أو جعلته يبكي؟ أين كانت في الوقت الذي كان شخص ما يسلم أخاها إلى الأعداء؟ ربما كانت تنتحب بعيداً عن شقيقها، ومن تلك اللحظة، أصبحت أكثر جمالاً وعمقاً. ولم تخجل مما لم تفعله، حيث يمكنها أن تظل صافية وسط مذبح كبيرة. وفي كثير من الأحيان، تحول كل الآلام التي يتعين عليها أن تشاهدها إلى أنوار داخلية، وكل شيء يعتمد على مبدأ خفي ينشأ عنه - بالتأكيد - تسامح الآلهة، وهو أمر لا يمكن شرحه، وكذلك الأمر بالنسبة إلى تسامحنا؛ لأننا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من التسامح، وعندما يمر الموت، الذي يحدث "التصالح الكبير"،

فمن منا لا يجثو على ركبتيه ويقوم بحركة التسامح للروح التي ماتت؟ وإذا كنت سأُنحني على جسد عدوى اللود، فهل تعتقدون عندئذ أنني وأنا أنظر إلى شفتيه الشاحبتين اللتين اغتابتاني، وإلى عينيه المغلقتين اللتين جعلتا عيناى تبكى من قبل، وإلى هاتين اليدين الباردتين اللتين عذبتاني، أنني أفكر عندئذ فى الانتقام. لقد دفع الموت عندما جاء ثمن كل شىء، ولم تعد الروح عندئذ مدينة لى بشىء، وبصفة غريزية، تسمو النفس فوق أصعب الأخطاء وأكثرها خطورة. وكم تعتبر تلك الغريزة عجيبة ومحملة بالمعاني! وإذا كنت أسف على شىء فليس لعدم قدرتى على إثارة المعاناة، لكن على عدم إحساسى بالحب بشكل كاف أو على عدم تسامحى من قبل.

وقد يقال إننا لا نفهم هذه الأمور فى قرارة أنفسنا، ونحن لا نصدر أحكاماً على إخواننا بناءً على أعمالهم أو حتى أفكارهم ؛ لأن الأفكار الخفية ليست دائماً غير مقروءة، ونحن نسير إلى ما وراء الشىء غير المقروء، ويمكن للمرء أن يكون قد ارتكب كل الجرائم المشهورة وأحطها دون أن تقلل أكبر جريمة ارتكبها للحظة من روج الانتعاش والصفاء المعنوى الذى يحيط بوجود هذا المرء، وذلك بدلاً من أن يكون الاقتراب من شهيد أو من حكيم غطاءً يثقل نفسنا بظلمات كثيفة غير محتملة. ويختار البطل أو القديس صديقة من بين وجوه يرى فيها دون عناء كل ما هو معتاد من الأفكار الخسيسة، ولن يشعر بشىء فى هذا الجو الأخوى أو الإنسانى، وهو موجود بجوار شخص آخر تمتلئ جبهته بأسمى الألحان وأعظمها. ماذا يعنى ذلك، وما الجديد الذى سينشأ عن تلك الأمور؟ هل توجد إذن قوانين أكثر عمقاً من تلك التى تحكم الأفعال والأفكار؟ وماذا تعلمنا من غيرنا؟ ولماذا نتصرف دائماً طبقاً لقواعد لا يتحدث عنها أحد، وإن كانت تعتبر وحدها هى الأكيدة؟ ذلك لأنه لا يمكن أن نؤكد - رغم كل المظاهر- أن البطل أو القديس لم يخطئاً ولم يفعل شيئاً سوى الطاعة، وإذا كان القديس قد خُذع وباعه إنسان كان قد اختاره بنفسه، فإن شيئاً ما لا يتزعزع يبقى مع كل ذلك يذكره بأنه ليس هناك خطأ، وأنه ليس ثمة شىء يؤسف عليه. ذلك لأن النفس لا تنسى أبداً أن النفس الأخرى كانت واضحة.

وبينما نحرك الحجر، المجهول تقريباً، الذى يغطى هذه الأسرار، يتنفس المرء رائحة الهاوية القوية جداً، وفى الوقت نفسه يتنفس رائحة الكلمات والأفكار، التى تسقط حولنا مثل ذباب مسموم.

وتبدو الحياة الداخلية نفسها كما لو كانت شيئاً صغيراً بجوار هذه الأعماق غير المتغيرة. هل ستكون فخوراً فى وجود أحد الملائكة، وهل ستكون ذلك الشخص الذى لم يخطئ قط، وألا توجد براءة دنيئة؟ عندما قرأ المسيح الأفكار البائسة للفارسيين "Pharisiens" الذين أحاطوا بالرجل المشلول فى "كفرناحوم Capharnaüm"، فهل كنت متأكداً أنه كان يصدر حكمه أيضاً على أنفسهم بمجرد نظرة مماثلة، ويدينها، دون أن يلاحظ من خلال هذه الأفكار علاقة مضيئة غير قابلة للإفساد؟ وهل كان المسيح سيكون إلهاً لو أن حكمه بالإدانة كان نهائياً؟ لكن لماذا يتحدث كما لو كان يتوقف فى الخارج؟ وهل يمكن لأحط الأفكار أو لأنبلها أن تترك أثراً على قطب ماسة؟ من هو الإله - إن كان حقاً فى الأعالي - الذى يكون بوسعه أن يمنع نفسه من أن يبتسم أمام أفضع أخطائنا، تماماً مثلما نبتسم نحن بسبب الألعاب الصغيرة، التى يقوم بها الطلاب على السجاد؟ وماذا يمكن أن يكن شأن هذا الإله الذى لا يبتسم؟ ولو أصبحت شفافاً حقيقة، فهل تعتقد أن بوسعك الهروب من نظرات الملائكة، أو أن تخفى أعمالك الكبرى عنهم؟ ومع ذلك ألا يوجد فينا أكثر من شئ يمكن أن يصير خطأ فى نظر الآلهة الجالسة على الجبل؟ من المؤكد وجود بعضهم هناك، كما أنه من المؤكد أن نفسنا لا تجهل أنها ستخضع للحساب. إن هذه النفس تعيش - دون أن تقول شيئاً - تحت قبضة قاض عظيم لا نستطيع إدراك أحكامه، لكن ما هذه الحسابات؟ وأين نجد علم الأخلاق الذى يتحدث عن ذلك؟ هل يوجد علم أخلاق غامض يسود فى بقاع بعيدة أكبر من تلك التى توجد فيها أفكارنا، أو فى نجم مركزى لا نراه، تعتبر فيه أكثر رغباتنا سرية مجرد كواكب لا حول لها؟ هل توجد فى قلب وجودنا شجرة شفافه لا تعتبر فيها كل أعمالنا وكل فضائلنا إلا بمثابة زهور وأوراق سرعان ما تزول؟ وفى الواقع نجهل ما هو الشر الذى يمكن أن ترتكبه ذاتنا، ولا نعلم أيضاً من أى شئ نخجل أمام هذا الفكر العلوى أو أمام ذات أخرى؛ ومع ذلك فمن منا يجد نفسه نقياً ولا يخشى أى قاض؟ وما تلك النفس التى لا تخشى نفساً أخرى؟

إننا هنا لم نعد نوجد فى الوديان المعروفة للحياة الحيوانية أو النفسية. إننا نصل إلى أبواب السور الثالث، وهو سور الحياة الربانية للمتصوفين، ولا نستطيع عبور عتبه إلا ونحن نتحسسها. ثم بعد أن نعبّر العتبة نتساءل: أين الحقائق المؤكدة؟ أين تختفى تلك القوانين الرائعة التى نخلّ بها دائماً فى غفلة من ضميرنا، على الرغم من أنّ نفسنا على علم بها؟

من أين يأتى إذن شبح هذه الإخلالات الغامضة، التى تخيم أحياناً على حياتنا وتجعل المعيشة فيها - فجأة - شديدة الرعب؟ ما الخطايا الروحية التى يمكننا أن نرتكبها؟ هل سنخجل من أننا كنا نناطح نفسنا، ومن أن نفسنا كانت تحارب الله دون أن يراها أحد؟ وهل تلك الحرب كانت صامتة إلى حد لا يمكن معه لأى زفرة أن تهز جنباتها؟ هل توجد لحظة يمكن أن نسمع فيها الملكة ذات الشفاه المغلقة؟ إنها تصمت دون أمل فى أى أحداث على السطح، لكن ألا توجد غيرها من الملكات، لا نكاد نلاحظها، وتتصل مع ذلك بقوى خالدة وعميقة. ها هو شخص يموت وينظر أو يبكي، وها هو آخر يقترب لأول مرة منه أو ها هو عدوك الذى يمرّ؛ أليست النفس حينذاك تهمس إلى نفسها؟ ولو استمعت إليها، فإنك ستبتسم فى تلك اللحظة لصديق قررت من قبل ألا تحبه فى المستقبل، لكن كل ذلك لا يعتبر شيئاً مذكوراً، بل لا يقترب حتى من الأنوار الخارجية للهوة. وليس فى الإمكان الحديث عن هذه الأمور؛ لأن المرء يجد نفسه فى وحدة موحشة. ويقول "نوفاليس Novalis" فى الوقت الحالى لا تتحرك النفس إلا هنا أو هناك؛ فمتى ستتحرك بالكامل، ومتى تستعيد الإنسانية وعيها؟. فقط بهذا الشرط وحده يمكن أن يعرف البعض شيئاً ما، ويجب أن ننظر بصبر تكون هذا الضمير الأعلى شيئاً فشيئاً، وقد يصل عندئذ أحد القادمين فى المستقبل إلى التعبير عما نشعر به جميعاً فى هذا الجانب من النفس، الذى يماثل وجه القمر الآخر، الذى لم نره منذ بداية العالم.

الفصل الخامس

"عن النساء"

فى هذه المجالات أيضاً تكون القوانين غير معروفة وفى وسط السماء يلمع فوق رؤوسنا نجم الحب المخصص لنا، وستنشأ كل أنواع حبنا وتستمر حتى نهايتها فى أشعة وجو هذا النجم، وسيكون من حقنا أن نختار اليمين أو اليسار فى المرتفعات أو المنخفضات، ويمكننا، كى نخرج من هذه الدائرة الجميلة التى نحس بها فى كل أعمال حياتنا، أن نخترق غريزتنا ونحاول أن نختار ما يتعارض مع اختيار نجمنا وننتقى دائماً المرأة التى تنزل من نجم ثابت لا يتغير. وإذا كنا - مثل "دون جوان Don Juan" - نقبل ألف امرأة وثلاث، فعندما يأتى المساء حيث تتراخى الأذرعة وتفترق الشفاه، نكتشف أن المرأة هى نفسها المرأة، طيبة كانت أو سيئة، حنونة كانت أم شرسة، المحبة أو الخائنة.. هى المرأة نفسها الماثلة أمامنا.

وفى الحقيقة، فإننا لا نخرج أبداً من دائرة الوضوح الصغيرة التى ترسمها أقدارنا حول خطواتنا، وربما يقال إن أبعد الناس يعرفون دقة وسعة هذه الحلقة التى لا يمكن تجاوزها، وتلك هى سمات هذه الاشعاعات الروحية التى يلاحظها الناس فى البداية، والتى تجعلهم يمدون يدهم باسمين أو يسحبونها خائفين، ونحن نعرف أنفسنا جميعاً فى الجو العلوى، والفكرة التى تعتمل فى نفسى عن شخص مجهول تتعلق على الفور بحقيقة غامضة أكثر عمقاً من الحقيقة المادية. ومن منا لا يعانى من هذه الأمور التى تحدث فى مناطق لا يمكن للإنسانية أن تخرقها لأنها مناطق النجوم؟ وهل عندما تتسلم خطاباً قادمًا من جزيرة نائية فى قلب المحيط كتبتها يد لا تعرفها، تكون متأكدًا

من أن شخصاً مجهولاً هو الذى يكتب لك، وألا تشعر فى اللحظة التى تقرأها فيها، وتتصور الكائن الذى تتقابل معه عبرها، بأن الآلهة وحدها هى التى تعرف أموراً مؤكدة لا خطأ فيها وأكثر أهمية بكثير من كل ما هو موثوق فيه عادة؟ ومن جهة أخرى، ألا تعتقد أن هذه النفس التى فكرت فيك بالمصادفة فى الزمان والمكان كانت لديها أشياء مؤكدة متماثلة؟

ويوجد فى كل مكان أمور غريبة نتعرف عليها ولا نستطيع أن نخفى عنها وجودنا، ولا يبدو أن شيئاً سيبقى على هذه العلاقات الدقيقة التى يتعين أن توجد، يوماً ما، بين جميع الأنفس وتكون أكثر خصوصية من تلك الأمور الصغيرة الغامضة، التى تصاحب تبادل بعض الرسائل بين اثنين لا يعرفان بعضهما. وقد يكون ذلك بمثابة ثقب ضيق بسيط، لكن به ما يمكن أن يجعلنا نكتفى ببعض الأضواء الخافتة التى تخرج منه. وربما يكون أحد هذه الثقوب الضيقة موجوداً فى باب الظلمات، حيث يمكننا عندئذ أن نتبين اللحظة ما يجرى فى مغارة كنوز لم يعثر عليها أحد قط. تفحص المراسلات الكثيرة لشخص ما، وستجد فيها شيئاً فريداً لا أعرفه. وأنا لا أعرف هذا أو ذاك من الناس الذين يوجهون أسئلة إلى بعضهم بعضاً فى الصباح، وما أعرفه هو أنى لا أستطيع أن أجيب الأول عن سؤاله بالكيفية نفسها التى أرد بها على الثانى، ذلك لأنى أحس شيئاً لا أراه، ولو كتب لى شخص لم أره قط فإننى سأكون على يقين من أن رسالته لى لا تماثل رسالة أخرى يكتبها لصديق موجود ينظر إلى فى هذه اللحظة. وسيوجد دائماً اختلاف روحى لا يمكن إدراكه، ويتمثل فى وجود علاقة بين روح، وروح أخرى تحيىها خفية، ويجب أن نعتقد أننا نعرف أنفسنا فى أماكن لا نعرفها، وأن لنا وطناً نذهب إليه ونجد روحنا فيه، ونعود منه بون تعب.

وفى هذا الوطن المشترك أيضاً، نختار عشيقاتنا، وهذا هو السبب فى أننا نرتكب نحن وعشيقاتنا أخطاء، وتعد مملكة الحب هى المملكة الكبرى للأمور المؤكدة، قبل أى شىء آخر، لأن الأرواح تستمتع فيها أكثر، لأنه ليس أمامها - حقيقة - شىء آخر تفعله إلا أن تتعرف على بعضها بعضاً، وتعجب ببعضها بعضاً بكل عمق، وتتبادل الأسئلة

فيما بينها والدموع في عيونها تماماً مثل أخوات شابات تتلاقين وتتشابكن أذرعهن، وتتلاقى شفاهن بعيداً جداً عنهن، وقد يكون لديهن الوقت للابتسام وليعشن لحظة لأنفسهن في هدأة الحياة اليومية القاسية، وقد ينتشر من هذه الابتسامات والنظرات التي لا نستطيع وصفها، ملمح لا نعرفه يحفظ إلى الأبد ذكرى تقابل ثغرين في أبرد دقائق الحب.

لكني لا أتحدث هنا إلا عن الحب المقدّر سلفاً وعن الحب الحقيقي، وعندما نعثر على عاطفة حب من تلك التي خططها لنا القدر، وأخرجها من عمق المدن الروحية الكبرى التي نعيش فيها دون أن ندري، كي يرسلها إلى مفترق الطريق الذي ينبغي أن يمر فيه في الساعة الموعودة، نكون على علم بهذه العاطفة منذ النظرة الأولى. وعندئذ يحاول البعض اختراق القدر، إذ يحدث أن نضع بعنف أيدينا على جفوننا كي لا نرى ما يتعين أن نراه. وإذا حاولنا بقوانا الصغيرة أن نقاوم القوى الخالدة، فسنتمكن من عبور الطريق إلى عاطفة حب أخرى ليست موجودة لحسابنا، إلا أننا سنبدل جهدنا دون أن ننجح في "تحريك الماء الراكد في براميل المستقبل". ولن يحدث أي شيء؛ لأن قوة الأعالى الصافية والشفافة لا ترغب في النزول، كما أن هذه القبلات، والساعات غير المفيدة، سترفض الانضمام إلى الساعات والقبلات الحقيقية في حياتنا.

وفي بعض الأحيان يغمض القدر عيونه، لكنه يعلم أننا سنعود إليه في المساء لأن كلمته هي الأخيرة، وإذا كان بإمكان القدر إغلاق عينيه لفترة إغماضهما تحسب في الوقت الضائع.

ويبدو أن المرأة أكثر خضوعاً للأقدار منا، لأنها تتعرض لها ببساطة أكبر. وبكل إخلاص لا تقف أبداً ضد هذا القدر. ومن جانب آخر فهي أكثر قرباً من الله، ومع قليل من التحفظ تترك نفسها لما يفعله الغموض المجرد، ولهذا فإنه من المؤكد أن كل الأحداث التي نمرّ بها في حياتنا تجري وتسوقنا إلى شيء ما يتشابه مع مصادر القدر، ونشعر في بعض اللحظات، ونحن قرييون من القدر على وجه الخصوص، "بحس واضح" لحياة لا يبدو أنها تماثل دائماً حياتنا الظاهرة، ذلك لأن القدر يقربنا من أعتاب وجودنا.

ومن يدري أنه فى اللحظة التى ينام فيها الأبطال على صدر القدر للحظة ما، يتعلمون قوة نجمهم وإخلاصه لهم. والإنسان الذى لا يستريح على قلب امرأة هل سيكون عنده شعور حقيقى بالمستقبل؟

وندخل مرة أخرى فى الدوائر المضطربة لضميرنا العلوى. آه!! من الصحيح هنا أيضاً ما يسمى بعلم النفس وهو واحد من تلك الأشباح التى اغتصبت، فى المحراب، المكان المخصص للصور الحقيقية للآلهة؛ لأن الأمر لا يتعلق دائماً بالسطح، بل ولا بأشد الأفكار السيئة. وإذن فهل تعتقدون أنه لا يوجد فى الحب إلا أفكار وأعمال وكلمات، وأن النفوس لا تخرج عن ذلك؟ وهل أنا فى حاجة لأن أعلم ما إذا كانت تلك التى أقبلها اليوم تشعر بالغيرة أو أنها ضاحكة أو حزينة، أو وفية أم خائنة! هل تتصور أن مثل تلك الكلمات ستصعد إلى الأعلى، حيث توجد أرواحنا وحيث تجرى أقدارنا فى صمت؟

لا يهمنى ما إذا كانت المرأة تتحدث عن المطر، أو عن الجواهر أو عن الأقلام والإبر، أو حتى ما إذا كانت تبدو غير فاهمة لى. هل تعتقد أننى أتعطش إلى كلمة عليا فى الوقت الذى أحس فيه أن نفساً تنظر إلى من خلال النفس، أو أننى لا أعلم أن خير الأفكار ليس لها الحق فى أن تطاول الغيبيات؟ إننى دائماً على شاطئ المحيط. ولو كنت مثل: أفلاطون، أو بسكال، أو مايكل أنجلو، ولو كلمتنى حبيبتي عن أقراط أذنيها، فإن كل ما يمكن أن أقوله أو تقوله لى هى، سيطفو بالكيفية نفسها على أعماق البحر الداخلى الذى يتأمله كل منا فى الآخر، ولن يكون لأعظم فكر فى موازين الحياة والحب أى تأثير إلا بمقدار ما تؤثر الكلمات الثلاث الصغيرة، التى تقولها لى طفلة تحبنى عن خواتمها الفضية، وعن عقدها اللؤلؤى أو عن قطع زجاج خاصة بها.

إننا نحن الذين لا نفهم لأننا نكون دائماً فى قاع ذكائنا، ويكفى أن نصعد إلى أول طبقات الجليد فى الجبل، كى نجد فى الأفق الفسيح أمامنا كل التضاريس. ما الفرق عندئذ بين كلمة يقولها "مارك أوريل Marc-Aurèle"، وبين ما تقوله طفلة تلاحظ برودة الجو؟ لنكن بسطاء ولنعرف كيف نفرق بين الحدث العارض وبين الجوهر.

ولا ينبغي أن تنسينا "العصا الطافية" غرائب الهاوية، ولا تخفف أجمل الأفكار أو أكثرها سوءاً من المشهد الأبدى لروحنا تماماً، مثلما لا تؤثر جبال الهملايا أو الحُفر في منظر أرضنا وسط نجوم السماء. لقد قيل كل شيء عن النظرة والقُبلة، وعن الثقة بوجود قوى غير مرئي، وأنا أعلم أنني أوجد إلى جانب شيء متعادل.

ولكن الشيء المتعادل جدير، حقيقة، بالإعجاب والاستغراب، وعندما تشعر آخر الفتيات بالحب فإنها تمتلك شيئاً ما لا نمتلكه أبداً، لأن الحب في تفكيرها خالد دائماً. فهل لهذا السبب تمتلك جميع البنات، بما لديهن من قوى فطرية، علاقات محرمة علينا؟ إن أفضل واحد فينا يوجد دائماً، وبالتقريب، على مسافات بعيدة من كنوزهن وعندما تتطلب لحظة مهمة من الحياة إحدى جواهر هذا الكنز، فإن الرجال لا يتذكرون الدروب التي تؤدي إليه، ويقدمون - بلا جدوى - جواهر مزيفة من صنع تفكيرهم تتفق مع هذا الظرف الملح الذي لا ينخدع فيه أحد، لكن المرأة لا تنسى الطريق الموصّل إلى مركز الكنز وربما أفاجأ بها في نعيم أو في شقاء، أو جهل أو علم، في عار أو مجد، ولو قلت لها كلمة تخرج حقيقة من أعماق نفسى البتول، فإنها ستعرف أن تجد، مرة أخرى، الدروب الغامضة التي لم تغب عن ناظرها قط، وستحضر لى بكل بساطة ودون تردد من أعماق خزائن الحب التي لا تنتفد، كلمة أو نظرة أو حركة صافية مثل حركتى. وربما يقال إن روح المرأة دائماً في متناول يدها ؛ وأنها مستعدة ليلاً أو نهاراً للرد على أعلى ما تتطلبه نفس أخرى، لأن دية أفقر النساء لا تتميز عن دية الملكات.

فلنقترب بكل احترام من أكثر النساء تواضعاً وأكثرهن تكبراً، من الطائشات والمفكرات، ومن الضاحكات والباقيات لأنهن يعرفن أموراً لا نعرفها ولديهن مصباح فقدناه نحن. وهن يقمن عند سفح ما لا يمكن تحاشيه، ويعرفن الطرق أفضل منا. ولذلك فإن لديهن أموراً مؤكدة مدهشة، وجاذبيات جديدة بالإعجاب. ويرى المرء جيداً أنهن يشعرن في أبسط أعمالهن بأن أيدى الآلهة الكبيرة تقوينهن وتشد من أزهرن. وقد كنت أؤكد الآن أنهن يقربننا من أبواب وجودنا. وقد نعتقد، حقيقة، أن علاقاتنا معهن تجرى عن طريق موارد هذا الباب الفطرى وبواسطة الوشوشات غير المفهومة

التي تصاحب بلا شك منشأ الأشياء، رغم أن الكلام لا يحدث إلا بصوت خافت، خشية ألا نسمع أمراً بمنع الكلام أو أن يحدث أمر غير متوقع.

ولا تجاوز المرأة عتبة هذا الباب، وتنتظرنا في الداخل حيث توجد الينابيع. وعندما نأتى لندق الباب من الخارج تفتح دون أن ترفع يدها عن المفتاح أو المصراع. وتنظر لحظة إلى هذا القادم الذي يقترب، وتكون في تلك اللحظة القصيرة قد عرفت كل ما يمكن معرفته، لأن السنوات القادمة ستكون غير مستقرة حتى آخر الأزمان.

ومن ذا الذي سيقول لنا ما تحويه أول نظرة حب "والتي تعتبر بمثابة عصاً صغيرة سحرية صنعت من شعاع ضوء منكسر"، وهو شعاع خرج من المركز الخالد لوجودنا والذي غير نفسين، وأصغر سنهما عشرين قرناً؟ ويفتح الباب ويفلق ولا داعي لبذل أى جهد بعد الآن، لأن كل شيء قد تقرر. وتعلم المرأة أنها لن تقيم وزناً بعد الآن لا لأعمالك، ولا لكلماتك، ولا لأفكارك، وإذا كانت النساء لا يزالن يراقبن ذلك حتى الآن. فإن المرأة لا تقوم بهذه المراقبة، إلا وهى مبتسمة؛ وسترفض - دون أن تدري - كل ما لا يعمل على تأكيد النظرة الأولى. ولو اعتقدت أنك يمكن أن تدخلها في مكان الخطأ، فاعلم جيداً أن لها الحق ضدك، وأنت وحدك الذي تخطئ؛ لأنك لا تكون في أعينها إلا ما تظنه أن يكون في قرارة نفسك، هذا في الوقت الذي تخطئ هي فيه باستمرار بشأن معنى الابتسامة أو الحركة أو الدمعة.

إنها كنوز خفية، ليس لها مسمى!... وأود أن يتحدث عنها كل أولئك الذي يعتبرون النساء سيئات ويجاهرون بذلك ولديهم أسبابهم، وإذا كانت هذه الأسباب عميقة؛ فإننا سنشعر بالدهشة وسنسير قدماً إلى المجهول. إن النساء يعتبرن حقيقة أخوة غير مرئيين لكل الأمور العظيمة التي لا نراها.

هن في حقيقة الأمر أقرب ما يكن إلى اللانهائية التي تحيط بنا، ويعتبرن وحدهن القادرات على أن يبتسمن للانهائية بالجمال العائلي نفسه لطفل لا يخشى أباه، وهنا يحتفظن بلمح نقى لنفسك، كما يحتفظن بجوهرة سماوية لا جدوى منها. وإذا ذهب النساء، فإن العقل وحده سيسيطر لكن على صحراء. ولا تزال توجد عند النساء الانفعالات

الإلهية للأيام الأولى التى تنغمس جنورها مباشرة فى كل ما ليس له حدود على الإطلاق، وأنا أرثى حقيقة لهؤلاء الذين يشكون منهم: لأنهم لا يعلمون فى أى مناطق علوية توجد القبلات الحقيقية. ومع ذلك فإنهن يبدون شيئاً قليلاً حينما ينظر إليهم الرجال بشكل عابر؛ إنهم يرونهن وهن يتحركن فى داخل منازلهن الصغيرة؛ حيث تنحنى امرأة قليلاً هنا، وتتجنب أخرى، وتغنى الثالثة، والأخيرة تقوم بالتطير؛ ولا يوجد أحد يفهم ما يفعلن!. ويأتى الرجال لزيارتهم كما يزور المرء أشياء تبتسم؛ ولا يقتربون منهم إلا بحذر، كما لا يمكن للروح أن تدخل إلا بصدفة عظيمة، والرجال يتساءلون بحذر؛ ولا يقولون لهن شيئاً؛ لأنهن يعرفن ما قالوه من قبل، ويذهب الرجال وهم يهزون أكتافهم مقتنعين بأن النساء لا يفهمن. "يجيبنا الشاعر - وله الحق دائماً - قائلاً: أى شيء تحتاج النساء لفهمه؟ وهل هن فى حاجة ليفهمن هذه الأرواح السعيدة التى اختارت أفضل الجوانب، والتى تتمتع بأنقى نيران الحب فى هذا العالم الأرضى، ولا تزدهر إلا على قمة المعابد أو أعالي السفن بوصفها دلالة على النار السماوية التى تفيض على كل شيء؟ وفى كثير من الأحيان، يقوم الأطفال الذين يحبون بمفاجأتنا فى الساعات المقدسة بأسرار عجيبة للطبيعة، ويكشفون عنها بعبقريّة تخرج عن نطاق الوعي، ويسير العالم على أثرهم ليجمع كل الجواهر التى نثروها عبر الطرقات فى ظل براءتهم ومرحهم. أما الشاعر، الذى يشعر ما تشعر به النساء، فإنه يمجد حبهن ويعمل - عن طريق أغانيه - على نشر هذا الحب، الذى يعتبر بذرة العصر الذهبى فى أزمنة وأمكنة أخرى." لأن ما قاله هذا الشاعر عن الصوفيين ينطبق - بصفة خاصة - على النساء اللاتى حفظن لنا - حتى الآن - المعنى الصوفى على الأرض.

الفصل السادس

"روسبروك العجيب Ruysbroeck l'Admirable"^(١)

يعتبر عدد كبير من المؤلفات الأخرى أكثر جمالاً من هذا الكتاب، الذي ألفه "روسبروك العجيب"، وهناك أيضاً عدد كبير من الصوفية أكثر توافقاً وفاعلية منه، مثل 'سويندنبرج Swendenborg"، و"نوفاليس Novalis".

ولا تتفق موضوعات كتاباته في أغلب الأحيان مع الاحتياجات الحالية، ومن ناحية أخرى، فإنني أعرف قلة من المؤلفين أقل مهارة منه، وهو يتوه الحظات في أمور غريبة وصغيرة، خاصة وأن أول عشرين فصلاً من كتابه: "زينة العرائس الروحية L'Ornement de Noces Spirituelles" لا تحتوى إلا على موضوعات فاترة تتعلق بالورع الديني العام، وإن كانت تعد بمثابة تمهيدات قد تكون ضرورية، ومن حيث الشكل الخارجي العام لا نجد لهذا الكتاب أى نظام أو منطق منهجى، ويكرر المؤلف نفسه فى أحيان كثيرة، ويبدو أحياناً متناقضاً مع نفسه.

وهو يجمع ما بين جهل يتصف به طفل، وعلم رجل قد يكون بعث من الموت. وللكتاب تركيبة كزازية اختلاجية جعلتني أتصيب عرقاً أكثر من مرة، فهو يقوم بإدخال صورة ثم ينساها، بل إنه يستخدم عدداً من الصور غير قابلة للتحقيق. ومثل هذا المظهر غير الطبيعى، فى عمل حسنت نيته، لا يمكن تفسيره إلا بعدم المهارة أو بالتسرع غير المعتاد.

(١) فان روسبروك الملقب بالعجيب، وهو رجل دين وكاتب ولد فى مدينة رويسبرك سنة ١٢٩٣ ومات سنة ١٣٨١. وتعتبر كتاباته الصوفية من بين أوائل المؤلفات الكبيرة المكتوبة باللغة الهولندية. (المترجم).

وهو يجهل معظم ألعيب الكلمة، ولا يمكن أن يتحدث إلا عن ما يعجز عنه الوصف. وهو لا يعرف تقريباً كل العادات والمهارات ومصادر الفكر الفلسفى ويحصر نفسه فيما لا يمكن التفكير فيه، وعندما يحدثنا عن صديقه الصغيرة فى دير الرهبنة، فإنه يصعب عليه أن يقول لنا، بما فيه الكفاية، ماذا يجرى داخلها، ويكتب حينئذ كما لو كان طفلاً. وهو يعمل على أن يعلمنا فى هذا الكتاب ماذا يحدث بالنسبة له. ويكتب فى هذا الخصوص صفحات قد لا يستطيع أفلاطون أن يكتبها، ويوجد بين الصفحات خلل كبير بين العلم والجهل، وبين القوة والرغبة، ولا يمكن أن نتوقع منه تقويم أى عمل أدبى، ولا يمكن للمرء أن يرى فيه شيئاً آخر سوى ما يراه عندما يطير صقر مخمور فى السماء وهو أعمى يقطر منه الدم فوق قمم جليدية.

وسأضيف كلمة أخيرة تحذيراً أخوياً، فقد حدث أن قرأت أعمالاً تصعب كثيراً على الفهم مثل كتاب "المريدون فى سايس *Les Disciples à Saïs*" ومقتطفات "لنوقاليس *Novalis*"، وعلى سبيل المثال أيضاً السيرات الأدبية، وكتاب الصديق للكاتب "صموئيل تايلور كوليردج"، وكتاب تيميه *Timée* لأفلاطون، وكتاب "إنياذ لبلوتان *Plotin*"، وكتاب "الأسماء المقدسة *Les Noms divins*" و"لسان دنييس الأريوباچيت *Saint Denis* *l'Aréopagite*"، وكذلك كتاب الأورورا *Aurora* للكاتب الصوفى الألمانى الكبير "جاكوب بوم *J. Boehme*"، الذى يتشابه معه مؤلفنا فى أكثر من موضع؛ ومع ذلك لا أجرؤ على أن أقول إن أعمال "روسبروك" أكثر صعوبة من هذه الأعمال، وقد نتغاضى عن هذه الصعوبة بجزء من إرادتنا، لأن الأمر يتعلق هنا أو هناك بكاتب لا نعرفه ليس لدينا ثقة فيه منذ البداية، وكان يبدو لى أنه من الضرورى أن نخطر، بكل تجرد، أولئك الذين يتسكعون على عتبة معبد بلا معمار، خاصة وأن الترجمة الخاصة بكتاب "روسبروك العجيب" لم تتم إلا لإرضاء بعض محبى أفلاطون، وأنا على يقين من أن الذين لم يعيشوا فى خاصية أفلاطون أو مع الأفلاطونيين الجدد فى الإسكندرية لن يسيروا قدماً فى هذه القراءة، وسيظنون أنهم يذهبون إلى فراغ، وسيتولد لديهم إحساس بالسقوط الشامل فى حفرة ليس لها قرار بين صخور سوداء ناعمة، ولا يوجد فى هذا الكتاب هواء أو نور معتاد لأنه ليس سوى مقرّ معنوى لا يحتمل من جانب الذين لم يهيئوا أنفسهم لهذا المقر.

ولا ينبغي الدخول في هذا المقر من باب حب الاستطلاع الأدبي، إذ لا توجد فيه كثير من التحف الصغيرة، ولن يجد فيه محبو النباتات المصورة أى أزهار إلا على كتل الجليد الطافية في القطب، وإننى أقول لهم إنها صحراء قاحلة لا حدود لها سيموتون فيها من العطش، وسيجد هؤلاء القراء في الكتاب قليلاً جداً من الجُمْل، التى يمكنهم تداركها للإعجاب بها على طريقة رجال الأدب، وإن كانت ليست إلا نافورات للعب أو كتلاً من الثلج، إذ لا ينبغي للمرء أن يذهب للبحث عن الورود في أيسلندا، وقد يحدث أن نجد بين قطعتين من الجليد أشباه زهرة. وفي الواقع قد نجد في الكتاب تعبيرات انفجارية فريدة، وتركيبات لغوية غير معروفة وتشبيهات لم يسمع بها أحد، وهى - هكذا - لا تساوى قيمة الوقت الذى ضاع في الحضور من بعيد للحصول عليها، وينبغي قبل الدخول في تفاصيل أن يكون المرء في حالة فلسفية مختلفة عن الأحوال العادية، التى تختلف بدورها في حالة اليقظة عن حالة النوم، ويبدو أن "بورفير Porphyre" في كتابه "مبادئ نظرية الفهم" قد كتب مقدمة تتناسب تماماً مع بداياته، حيث إنه يكثر - بذلك - من الحديث «عن كثير من الأمور التى تتعلق بمبدأ دائم يصعب على الفهم، ويتجلى فيه الحدس عن طريق غياب الفكر أكثر من الفكر نفسه. وهذا الأخير يماثل فكرة النعاس الذى يتم الحديث عنه، وفكرة حالة اليقظة، دون التوصل إلى معرفة أو إدراك إلا عن طريق النوم. وفي واقع الأمر لا يُعرف النظر إلا بالنظر، والشرط في أى معرفة هو أن يصير الفاعل مماثلاً للمفعول». وأكرر القول بأنه من الصعب أن نفهم هذا الكلام دون استعداد لأن نفهمه لأنه رغم دراساتنا المبدئية، فإن جزءاً كبيراً من التصوّف سيبدو لنا نظرياً مجرداً، ولن تصل إلينا معظم التجارب النفسية غير الطبيعية إلا بوصفنا مجرد متفرجين، ويعد الخيال الفلسفى موهبة تربوية شديدة البطء، إذ نجد أنفسنا فجأة ونحن في جوانب الفكر الإنسانى، بعيدين عن الحلقة القطبية لهذا الفكر حيث البرودة غير المعتادة، وحيث الظلمة غير العادية، وإن كنا في الحقيقة لا نرى شيئاً آخر غير اللهب والضوء.

وبالنسبة للذين يحاولون الوصول إلى هذه المدركات دون أن يكونوا مستعدين لها، فإن هذا الضوء وهذا اللهب سيعتبران مظلّمين وباردين كما لو كانا مرسومين.

ويتعلق الأمر هنا بأضبط العلوم، حيث ينبغي المرور بأعقد الدروب التي لا تسكنها القداسة، وتتمثل في هذه العبارة "اعرف نفسك بنفسك"، وتسيطر "شمس منتصف الليل" على البحر الهائج، حيث تختلط سيكولوجية الإنسان بسيكولوجية الله، ومن الضروري أن نتذكر ذلك باستمرار لأننا هنا بصدد علم عميق جداً، وليس مجرد حلم، لأن الأحلام لا تتوافق مع بعضها وليس لها جذور، بينما الزهرة المتوهجة لعلم ما وراء الطبيعة، المقدسة والمتفتحة لها جذور غيبية في فارس والهند ومصر واليونان. ومع ذلك، فإن هذه الميتافيزيقا مُغيبة الوعي تماماً كالزهرة التي تجهل جذورها. وللأسف فإنه من المستحيل علينا تقريباً أن نضع نفسنا موضع تلك النفس التي تصورت هذا العلم دون جهد، والتي لا يمكن رؤيتها أو وجودها في أعماقنا. وينقصنا ما يسميه "إيمرسون Emerson" "التلقائية المركزية"، ولم يعد في وسعنا أن نحول هذه الأفكار إلى المادة الخاصة بنا. وعلى أكثر تقدير، يكون بوسعنا أن نقبل من الخارج تلك التجارب المعجزة التي لا يستطيع الوصول إليها إلا عدد قليل جداً من الناس طوال بقاء النظام الكوكبي للكون. ويقول بلوتان Plotin: «ليس من الشرعية أن نبحث عن مصدر هذا العلم الحدسي، كما لو كان له صلة بالمكان والحركة، فذلك لا يقربنا بأي حال من أماكن أخرى، وقد يكون هذا بادياً أو غير ظاهر لكن لا ينبغي تعقب هذا الموضوع بقصد اكتشاف مصادره السرية. لكن يجب أن ننتظر في صمت إلى أن يُطْل هذا الأمر علينا، على أن نعد أنفسنا لهذا المشهد المقدس، تماماً كما تنتظر العين - بكل صبر - شروق الشمس».

وفي مكان آخر، يضيف بلوتان Plotin قائلاً: «ليس بالخيال ولا بالعقل يضطر المرء إلى أن يستخلص بنفسه مبادئه من الخارج كما يسؤل لنا فهمنا ذلك، وإنما يتحقق ذلك بالموهبة التي نمتلكها كي نتأمل هذه المبادئ، تلك الموهبة التي تسمح لنا بأن نتحدث عنها في هذه الدنيا. ونحن نرى هذه المبادئ عندما نوقظ في ذاتنا وفي الحياة الدينية القدرة نفسها، التي يتعين علينا إيقاظها في أنفسنا عندما نوجد في عالم الفهم. ونحن نشبه إنساناً يحفر في أعلى صخرة، وينظر إلى أشياء لا يمكن أن يراها أولئك الذين لم يصعدوا معه للصخرة». لكن على الرغم من أن جميع المخلوقات بدءاً من الحجر والنبات حتى الإنسان تعتبر موضوعات للتأمل، فإن هذه التأملات تعتبر تأملات غير واعية،

لأنه من الصعوبة بمكان أن نجد في أنفسنا ذكرى لنشاط سابق لموهبة ميتة. ونحن نشبه هنا العين في الصورة الأفلاطونية الجديدة، التي تذكر «أن المرء يبتعد عن النور ليرى الظلمات، وبذلك لا يرى شيئاً لأنه ليس من المستطاع رؤية الظلمات مع النور، لأنه دون النور لا يرى المرء شيئاً، وبهذه الطريقة يرى الظلمات بقدر مقدرته الطبيعية على أن يراها وهو لا يراها».

وأنا أعرف حكم معظم الناس على هذا الكتاب فهم يرون فيه عملاً لراهب مهووس، أو لشخص انعزالي شارد أو ناسك ثمل من الصيام مصاباً بالحمى، وسيرى الناس في هذا الكتاب حلمًا أحرق وأسود تجتازه ومضات كبيرة ولا شيء غير ذلك. إنها الفكرة العادية التي يكونها الناس عن المتصوفين، وينسون في أغلب الأحيان أن كل يقين يتمثل فيهم وحدهم. وفضلاً عن ذلك، فإن قيل إن كل بشر يكون في أحلامه "شكسبير"، فيجب أن نسأل أنفسنا عما إذا كان كل كائن، في حياته، لا يعتبر متصوفاً لا شكل له رغم أنه أكثر شفافية بكثير من أولئك الذين أحاطوا أنفسهم بالكلمة، وأين هو عمل الإنسان الذي لا يكون الدافع الأخير إليه ليس صوفياً؟

وعلى سبيل المثال، ألا تكون عين العاشق أو عين الأم أكثر صعوبة في الفهم مائة مرة وأكثر غموضاً وأكثر صوفية من هذا الكتاب الهزيل، الذي يسهل تفسيره مثل كل الكتب التي لا تحتوى إلا على غيبيات ميتة لا يتجدد لها أفق؟ وإذا لم نكن فاهمين لذلك، فقد لا نفهم شيئاً بعد ذلك. وإذا عدنا إلى مؤلفنا، فإن البعض سيتعرفون دون عناء، ودون أن يصيبهم جنون الجوع والوحدة والحمى، على هذا الراهب الذي كان يمتلك، على العكس، أحكم وأدق وأضبط أعضاء فلسفية في الوجود. ويقال لنا إنه كان يعيش في خيمة في منطقة جروننداييل Groenendael وسط غابة سواني Soignes، وكان ذلك في مستهل أحد القرون البدائية في العصور الوسطى وهو القرن الرابع عشر. كان "روسبروك" يجهل اليونانية وربما اللاتينية أيضاً، وكان وحيداً فقيراً. وفي قلب هذه الغابة المتوحشة كانت نفسه البسيطة الجاهلة تستقبل - دون أن تعلم - الانعكاسات الصادرة من القمم المنفردة والغامضة للفكر الإنساني، والتي تصيب المرء بالعمى عن كل شيء.

إنه يعرف - دون أن يعلم - أفلاطونية اليونان، وصوفية فارس، وبراهمية الهند، وبوذية التبت، وعثر جهله العجيب على حكمة القرون الغابرة، وتنبأ بعلم قرون لم تكن قد جاءت بعد. ويمكننى أن أستشهد بصفحات كاملة لأفلاطون، وبلوتان، و "بورفير Porphyre"، وصفحات أخرى من كتب "زندس Zends"، و "جنوستيك"، و "كبال Kabhale" وردت مادتها الدينية التي لم يمسه أحد، كتابات القس الفلاماندى البسيط، حيث توجد تصادمات وتكاملات غريبة تثير القلق، بل إن هناك ما هو أكثر من ذلك، إذ يبنو فى بعض الأحيان أنه قد افترض وجود كثير من المغمورين السابقين؛ ومثلما بدأ "بلوتان Plotin" رحلته الرائدة من حيث توقف أفلاطون منزعجاً وجائشاً على ركبتيه، يمكننا أن نقول إن "روسبروك" قد أيقظ وبعث هذا النوع من الكلام، الذى كان قد انتابه السبات فوق الجبال التى هجرها "بلوتان" منبهراً عندما وضع يده على عينيه كما لو كان أمام حريق هائل، خاصة وأن هذه النوعية من الكلام كانت قد خمدت قروناً عديدة بحيث لا يمكن إعادتها من جديد.

لكن تركيبة فكر أفلاطون، و "بلوتان" تختلف بشكل غريب، لأنهما - قبل كل شيء - أميرا علم الكلام، إذ إنهما يصلان إلى الصوفية بالمجادلة، وهما يستخدمان ذاتهما المحبة للجدال ويحذران حدسها وتأملاتها، وتتأمل الحجة العقلية نفسها فى مرآة الفكر المنطقي وتجاهد لتظل غير مكترثة بأى تداخلات من جميع الانعكاسات الأخرى. وتواصل الحجة العقلية مسيرتها مثل نهر من الماء العذب وسط بحر، مع إحساس باقتراب حدوث تشرب الأرض لهذا الماء. وهنا نعثر - على العكس - على عادات الفكر الآسيوى، وتظل الروح الحدسية وحدها فوق الشفافية الاستدلالية للأفكار باستخدام الكلمات، وهكذا سقطت قيود الحلم، فهل هذا السقوط أقل تأكيداً؟ لا يمكن لأحد أن يقول ذلك، لأن مرآة الذكاء الإنسانى غير معروفة بالكامل فى هذا الكتاب، لكن توجد مرآة أخرى أقل صفاء وأكثر عمقاً نكتشفها فى أعماق وجودنا، ولا نستطيع أن نرى فيها أية تفاصيل بوضوح، ولا يمكن للكلمات أن تطفوا على سطحها، لأن الذكاء قد يكسرها إذا انعكس فيها للحظة واحدة ضوء دنيوى؛ لكن شيئاً آخر يظهر فيها لبعض الوقت: فهل هى النفس؟ هل هو الله بذاته؟ أو الاثنين معاً؟ لا يمكننا أن نعرف ذلك أبداً. ومثل هذا الظهور الذى لا نراه تقريباً هو وحده الذى يسيطر على حياة الملحد

أو الأعمى بيننا، ولن نلاحظ شيئاً آخر هنا إلا انعكاسات غامضة لهذه المرآة، وبما أن كنزها لا ينفد، فإن هذه الانعكاسات لا تشبه تلك التي نشعر بها في أعماقنا، ومع ذلك فإن تأكيد هذه الانعكاسات يبدو غير عادى. ولذلك فأنا لا أعرف إزعاجاً أكثر مما يسببه هذا الكتاب الذى يُفترض أنه مكتوب بحسن نية، ولا يوجد فى العالم مفهوم نفسى أو تجربة ميتافيزيقية، أو حدس صوفى شديد الدلالة والتعمق غير منتظر، لا يقلل من استطاعتنا أن نجعله يعيش للحظة فى نفسنا حتى يؤكد لنا الشخصية الإنسانية لكل ذلك؛ لكننا هنا نشبه أباً أعمى لا يمكن أن يتذكر وجوه أطفاله، ولا يمكن لأى من هذه الأفكار أن يتخذ مظهر البتوة أو الأخوة لأى فكرة على الأرض.

ويبدو أننا فقدنا تجربة الله، ومع ذلك فإن كل شىء يؤكد أننا لم ندخل إلى بيت الأحلام. هل يجب أن نصيح مع "نوفاليس Novalis" أن الزمن الذى تكون فيه روح الله مفهومة لم يأت بعد وأن معنى العالم قد ضاع إلى الأبد؟

هل كانت الروح تظهر فى الماضى، وإننا الآن لا نلمح سوى انعكاسات ميتة لم نعد نفهمها، ونعيش فقط على ثمار الزمن الجميل؟

إننى أعتقد أنه يجب أن نعترف بكل بساطة بأن مفتاح هذا الكتاب لم يعد يوجد على المسارات المعتادة للفكر الإنسانى، لأن هذا المفتاح ليس مخصصاً للأبواب الأرضية، وأنه يجب العمل على استحقاق الحصول على هذا المفتاح بالبعد عن الأرض بقدر الإمكان. ولن نقابل فى هذه المنعطفات المنعزلة سوى مرشد واحد يمكنه إعطاءنا الدلالات الأخيرة عن هذه الجزر النارية الغامضة، أو عن هذه الجزر الجليدية للتجرد والحب. و "بلوتان" هو الذى بذل جهداً فى تحليل القدرة الإلهية، التى تسود هنا باستخدام العقل الإنسانى، وقد شعر "بلوتان" بجوانب النشوة نفسها التى ليست فى الحقيقة إلا بداية للاكتشاف الكامل لكيونتنا، وذلك باستخدام ما نسميه "الكلمة التى لا تقول شيئاً". ووسط اضطرابات نواحي النشوة تلك وما تحمله من ظلمات، لم يغلق "بلوتان" للحظة عينه المتسائلة بوصفه عالم نفسى يبحث عن الإحاطة بأغرب مظاهر نفسه، وبهذا يصبح آخر حاجز نستطيع من خلاله أن نفهم إلى حد ما أمواج وأفق هذا البحر الغامض.

وهو يحاول أن يتوغل ويطيل دروب الفكر العادى حتى تصل إلى قلب نواحي التخریب، ولهذا يجب أن نرجع إلى "بلوتان" باستمرار، لأنه الصوفى التحليلى الوحيد. وأريد أن أقدم هنا واحدة من الصفحات، التى حاول فيها شرح تركيبة القدرة الإلهية فى التأمل الباطنى، إلى هؤلاء الذين تسحرهم هذه الرحلات العلمية العجيبة.

وهو يقول: «فى الحدس الفكرى، يرى العقل الأشياء غير المفهومة بواسطة الضوء الذى ينشره الحدس الفكرى على هذه الأشياء، وعند رؤية الأشياء يرى العقل حقيقة نور الفكر. لكن، نظراً لأنه يركز انتباهه على الأشياء المضيئة الواضحة، فإن الفكر لا يدرك جيداً الأساس الذى به يتم توضيح هذه الأشياء وإضاءتها. أما إذا نسى العقل الأشياء التى يراها كى يتأمل فقط الضوء الذى يجعلها مرئية، فإنه يرى النور نفسه ويفهم أصله ومصدره، لكن بما أن العقل يركز انتباهه على الأشياء المضيئة، فإن الفهم الإنسانى لا يرى بوضوح المصدر الذى يضىء هذه الأشياء، وعلى العكس، لو نسى العقل الأشياء التى يراها، كى لا يتأمل إلا الضوء الذى يجعلها مرئية، فإنه يرى الضوء نفسه، ويرى مصدره، لكن العقل حين يتأمل الضوء الذى يفهمه، لا يحدث ذلك خارج نطاقه. وعندئذ يكون مشابهاً للعين التى يسقط عليها فجأة نور خاص بها، دون أى اعتبار لأى ضوء خارجى غريب عنها، بل وحتى قبل أن تحس به العين، بل يمكنها أن تتعرض إلى شعاع ينبع منها، يبدو لها وسط الظلمات؛ ويحدث ذلك بالكيفية نفسها عندما تغلق العين جفنها وتستقى النور من ذاتها، أو عندما تضغط اليد على العين التى تلمح آنذاك النور الموجود داخلها. أما الأشياء الأخرى التى كانت تراها العين من قبل، فلم تكن النور نفسه رغم أنها مضيئة، والشئ نفسه يحدث عندما ينطلق العقل أمام الأشياء الأخرى ويركز كل شئ فى ذاته بحيث لا يرى شيئاً، وعندئذ يرى نوره هو فجأة، وإشعاعه الداخلى ذا الضوء الشفاف، وليس الضوء الخارجى الذى يلمع بأشكال غريبة».

ويقول "بلوتان" أيضاً: «يتعين على النفس التى تدرس الله أن تكون لنفسها فكرة عنه وهى تبحث عن معرفته، ويجب عليها بعد ذلك أن تتوغل فى أعماق الألوهية، وهى تعلم إلى أى شئ كبير تريد أن تتحد، وتحس بمدى السعادة فى هذا الاتحاد،

وحتى تصبح النفس وحدها موضوعاً للتأمل بدلاً من أن تتأمل نفسها أو تتأمل العالم الذى نفهمه، وعندئذ تلمع بضياء المفاهيم التى يأتى مصدرها من الأعلى».

وهذا بالتقريب كل ما يمكن أن نقوله لنا الحكمة الإنسانية فى هذا الصدد؛ وهذا تقريباً أيضاً كل ما استطاع أمير الميتافيزيقيين الشفافين أن يعبر عنه؛ أما فيما يتعلق بالشروح الأخرى، فيجب أن نجدها فى أنفسنا وفى أعماقنا، حيث ينمحي كل تفسير فى التعبير عنه. وهناك أمور كثيرة لا توجد فقط فى السماء أو على الأرض، لكن فى أنفسنا أيضاً حيث توجد أشياء كثيرة لا يمكن أن تحتويها كل الفلسفات. وفى الوقت الذى لا نكون فيه مضطرين إلى صياغة كل ما هو خفى فينا، نكون أكثر عمقاً من كل ما كتب، وأكثر عظمة من كل ما هو موجود.

والآن، وإذا كنت ترجمت هذا الكتاب، فذلك يرجع فقط إلى أننى أعتقد أن كتابات الصوفيين تعتبر أنقى جواهر الألباس فى كنز الإنسانية، رغم أن أى ترجمة قد تكون غير مفيدة؛ لأن التجربة تبرهن - فيما يبدو - على أنه ليس من المهم كثيراً أن يحدث سر تجسيد فكر ما فى النور أو فى الظلمات، لكن المهم أنه يحدث. ولكن، وعلى الرغم من كل شىء، فإن للحقائق الصوفية امتيازاً غريباً على الحقائق العادية، لأنها لا يمكنها أن تتقادم أو تموت. ولا توجد حقيقة نزلت ذات صباح على هذا العالم تثير الإعجاب من جراء قوتها وفتوتها أو تكون مغطاة بالندى الرطب الرائع، الخاص بما لم يتم قوله من أشياء. اذهب لتتجول فى غرف تريض النفس البشرية فستجد عمرها ينتهى فى كل الأيام، ولن تجد فيها مطلقاً أى فكر صوفى، لأن لديها حصانة ملائكة "سويندنبورج" Swendenborg التى تتقدم باستمرار نحو ربيع شبابها، بحيث يظهر أطول ملائكتها عمراً، كأنهم أكثر الملائكة شباباً أو كأنهم قادمون من الهند أو اليونان أو من الشمال بلا وطن ولا ذكريات سنوية، وفى كل مكان نقابلهم فيه، تبدو هذه الملائكة ثابتة وعصرية مثل الله نفسه. ولا يمكن لأى عمل أن يتقادم إلا بقدر ما يكون نقيضاً للصوفية، ولهذا فإن هذا الكتاب لا يحمل أى تاريخ، إننى أعرف أنه أسود على غير العادة، لكننى أعتقد أن المؤلف المخلص حسن النية لا يكون دائماً غامضاً بالمعنى الأبدى للكلمة، لأنه يفهم نفسه دائماً وأبداً ويتجاوز ما يقوله. والأفكار المصطنعة هى وحدها التى ترتفع لتصير ظلمات حقيقية،

ولا تزدهر إلا في العصور الأدبية، وفي ظل سوء ظن القرون الواعية بشدة عندما يكون فكر الكاتب متجاوزاً لما يعبر عنه. وهناك نرى الظل الخصب لغاية ما، أما هنا فتوجد ظلمة قبو لا تزدهر فيه سوى طفيليات معتمة، ويجب أن نأخذ في الاعتبار في هذا العالم المجهول أن عباراته كان يجب أن تضيء عبر زوايا الكلمات والأفكار من خلال واجهات مزدوجة وبسيطة. وكما سبق أن لاحظنا، اخترعت الكلمات للاستخدامات العادية للحياة. وتكون هذه الكلمات تعسة وقلقة ومندهشة تشبه المشردين، الذين يتجمعون حول عرش انتظاراً لذات ملكية تدفعهم للخارج. ومن جهة أخرى، هل تكون الفكرة دائماً صورة دقيقة لما تولدت عنه؟ ألا تبدو دائماً صورة الصراع التي نراها فيها، متماثلة مع صراع يعقوب مع الملك؟ يقول "كارليل Carlyle": "الويل لنا إذا لم يكن في ذاتنا ما يمكن أن نعبر عنه ونكشف عنه! إنني أعلم أنه يوجد في هذه الصفحات شبح الأشياء التي لا نتذكر أننا رأيناها، والتي لا يحاول هذا الراهب (روسبروك العجيب) أن يوضح كيفية استخدامها، والتي لا نتعرف عليها إلا عندما سنرى الأشياء نفسها من الجانب الآخر للحياة؛ ولكن انتظارك لذلك، سنضطر إلى أن ننظر إلى بعيد وهذا كثير. وإنني أعلم أيضاً أن كثيراً من الجمل تطفوا تقريباً مثل قطع الثلج الشفافة فوق بحر من الصمت لا لون له، لكن هذه الجمل فصلت عن المياه وهي موجودة. وهذا يكفي. وأنا أعلم أخيراً أن النباتات الغريبة التي زرعها على قمم الفكر تحيط بها سحب خاصة. لكن هذه السحب لا تسبب الإهانة إلا لهؤلاء الذين ينظرون إلى أسفل، ولو كانت لدى أحد الجرأة على الصعود، فسيلاحظ أن هذه السحب هي الجو نفسه الذي توجد فيه هذه النباتات، وأن هذا المناخ نفسه هو الذي يمكن فيه للنباتات أن تتفتح في مأمن من الوجود. ذلك لأن الأمر يتعلق بنبات شديد الدقة إلى حد أنه يتميز بالكاد عن الصمت الذي استقى منه العصارة، وإلى حد أنه يبدو أنه يميل إلى إذابة نفسه. ومن جهة أخرى، فإن كل هذا العمل - الذي كتبه روسبروك - يعتبر بمثابة كوب منقوخ موضوع على الظلام والصمت؛ وأحياناً لا نستطيع أن نتبين على الفور طرف الأفكار التي تنغمس فيه. إنه شيء لا نراه، وإن كان يشف عن نفسه للحظة؛ ويجب بالطبع بعض الانتباه في مواجهة تغيراته.

وهذا الكتاب ليس بعيداً جداً عنا، بل إنه فى مركز اهتمام إنسانيتنا ؛ لكننا نحن الذين نبتعد عن هذا الكتاب كثيراً جداً، وإذا كان هذا الكتاب يبدو لنا مثبّطاً كالصحراء، وإذا كان الأسى فى الحب الإلهى فيه يبدو بشعاً، والتعطش إلى القمم فيه غير محتمل، فإن الكتاب ليس هو القديم جداً، لكن نحن الذين ربما أصبحنا شيوخاً جداً، وحرزاني بلا شجاعة مثل الطاعنين فى السنّ المتجمعين حول طفل؛ وهناك متصوف آخر هو "بلوتان Plotin"، ذلك الصوفى الكبير الوثنى الذى ربما يعتبر محققاً بالنسبة إلينا عندما يقول لهؤلاء الذين يشكون من أنهم لا يرون شيئاً على مرتفعات التأملات الباطنية: «يتعين أولاً أن نجعل عضو الإبصار مماثلاً ومشابهاً للشيء الذى يتعين عليه أن يتأمله. ولم تكن العين قط قادرة على رؤية الشمس لو لم تكن قد اتخذت شكل الشمس، وكذلك لا تستطيع الروح أن ترى الجمال، إذا لم تصبح هى أولاً جميلة ويجب أن يبدأ كل إنسان بأن يجعل نفسه جميلاً وربّانياً، كى يحصل على رؤية الجمال والربّانية».

الفصل السابع

"إيمرسون Emerson"^(١)

قال نوفاليس Novalis: «ثمة شيء واحد مهم، هو البحث عن ذاتنا الشفافة». ونحن نلاحظ هذه الذاتية أحياناً في كلمات الله وفي كلام الشعراء والحكماء ووسط بعض المسرات وبعض الآلام، وفي أثناء النوم، وعند الحب والأمراض وظروف أخرى غير متوقعة، حيث تشير لنا هذه الذات من بعيد، وترينا بأصابعها علاقاتنا مع الكون.

ولم يتمسك بعض الحكماء إلا بالبحث في الذات وألفوا كتباً لا يسود فيها إلا كل ما هو غريب. ويقول إيمرسون كاتبنا: «ماذا تساوى هذه الكتب إن لم تكن بها شفافية وغرابة؟»

كان هؤلاء المؤلفون مثل الرسامين الذين يحاولون فهم تشابه ما في الأمور بين الظلمات، ويخط البعض منهم صوراً مجردة كبيرة جداً، لكنها غير واضحة. وتوصل البعض الآخر منهم إلى تحديد موقف أو حركة طبيعية في الحياة العليا، وتصور العديد منهم كائنات غريبة، وإن كان لا يوجد الكثير من هذه الصور، التي لا تتشابه مطلقاً وإن كان بعضها جميلاً جداً. والذين لم يروا هذه الصور يشبهون طيلة حياتهم أناساً لم يخرجوا قط وسط النهار، وتوجد صور خطوطها أكثر نقاء من خطوط السماء، وعندئذ تبو لنا هذه الصور شديدة البعد إلى الحد الذي لا نعرف فيه ما إذا كانت هذه

(١) رالف والنو إيمرسون، فيلسوف أمريكي ولد في بوسطن سنة ١٨٠٣ ومات عام ١٨٨٢، وهو يعتبر مؤسس مدرسة الشفافية الفلسفية، وقد ألف كتاباً بعنوان: ملامح من الطباع الإنجليزية سنة ١٨٥٦. (المترجم).

الصور موجودة بالفعل كما هي، أو ما إذا كانت قد تغيرت إلى الشكل الذي نريده لأنفسنا. وتعتبر هذه الصور من الأعمال الصوفية النقية التي لم ير الإنسان نفسه فيها بعد. وهناك آخرون ممن نطلق عليهم اسم الشعراء، يحدثوننا عن هذه الأمور بطريقة غير مباشرة. وهناك طائفة ثالثة من المفكرين، وهي التي تبالغ في درجة أسطورة "قنطورس" Centaure^(٢)، تعطينا عن هذه الشخصية الخفية صورة تختلط فيها خطوط الوصول إلى خط "الأنا" الخاص بنا، وتماثل هذه الخطوط تلك الموجودة في ذاتنا العليا. وفي هذه الصورة، نرى وجه ذاتنا الربانية، الذي يبتسم فيها للحظات أعلى كتف أخته النفس الإنسانية، التي تميل إلى القيام بعمليات فكرية بسيطة، أما هذه الابتسامة التي تجعلنا نرى ما وراء الفكر رؤية عابرة، فتعتبر وحدها الشيء المهم في أعمال البشر.

قليلون هم الذين أوضحوا لنا أن الإنسان أكثر عظمة، وأكثر عمقاً من الإنسان نفسه، وقد توصلوا إلى تحديد بعض من تلك الإشارات الخالدة التي نقابلها في الحياة في كل لحظة، والتي تتمثل في شكل حركة أو علامة أو نظرة، أو كلمة في لحظة صمت، أو فيما يحيط بنا من أحداث أيضاً. ويعتبر علم عظمة الإنسانية أغرب العلوم، ولا يجهله أى من الناس، لكن الجميع لا يعرفون تقريباً ما إذا كانوا يمتلكون هذا العلم من عدمه. وليس لدى الطفل الذي يقابلني القدرة على أن يقول لأمه ما رآه، ومع ذلك، فحين تلمحني عينه، يعلم كل ما يتعلق بوجودي الآن، وفي الماضي والمستقبل أكثر مما يعلمه أخى نفسه، بل يعرف ثلاثة أضعاف ما أعرفه. وهو يعرفني في الحال سواء في الماضي أو المستقبل، في هذا العالم، والعوالم الأخرى. بل إن عينيه تظهران - لي أيضاً - الدور الذي أَلعبه في هذا العالم أو في عالم الخلود. أما الأرواح المعصومة من الخطأ فقد حكمت على نفسها بنفسها، وحين تستقبل نظرة الطفل نظرتي وتشاهد شكلي ووجهي وكل ما يحيط بذلك من اللانهاية، وكل ما يمكن التنبؤ به، فإن هذا الطفل يعرف إلى أى شيء ينجذب على الرغم من أنه لا يعرف كيف يميز بين تاج الإمبراطور وخرج الشحاذ. لقد عرفني للحظة كما يعرفني الله.

(٢) قنطورس: كائن خرافي نصفه إنسان ونصفه فرس. (المترجم).

ومن الحقيقى أننا نتصرف بالفعل مثل الآلهة، وتمضى حياتنا كلها وسط أمور مؤكدة لا يتطرق إليها الخطأ فى اللانهايات، لكننا كنا عمياناً نلعب بأحجار كريمة على طول الطرقات ؛ والإنسان الذى يطرق بابى يستهلك - فى اللحظة التى يحيينى فيها - كنوزاً روحية رائعة، تماماً مثل الأمير الذى قد يكون بوسعى انتزاعه من الموت، وفى لحظة يرى - عندما أفتح له بابى - كل ما حدث بين روحين كائنه يراه من أعلى برج. وبالعق نفسه أصدر حكى على الفلاحة التى أسأله عن الطريق، أو أسأله عن حياة أمى. وروحها تحدثنى بخصوصية تماثل خصوصية خطيبتى. ويسرعة ترتقى هذه الفلاحة إلى غيبىات كبرى قبل أن تجيبنى وتقول لى بهدوء العالمة بما كنت فيه، إنه ينبغى أن أسلك طريق القرية إلى اليسار، ولو أمضيت ساعة وسط الناس دون أن أقول شيئاً، فإننى أكون قد حكمت عليهم ألف مرة - دون أن أفكر لحظة - فى تلك الأحكام على الأحياء والأموات، أو فى أى من هذه الأحكام سيتغير فى الآخرة.

وفى هذه الغرفة يوجد خمسة أو ستة أشخاص يتحدثون عن المطر والجو الجميل، لكن إذا تجاوزنا هذا الحديث البسيط، نجد أن هناك ستة أرواح لها حديث لا يمكن لأية حكمة إنسانية أن تقترب منه دون مجازفة، وعلى الرغم من أن هذه النفوس تتحدث عبر نظراتها وأيديها ووجوهها وكل وجودها، فإنها تجهل دائماً ما قالتها. ومع ذلك يجب على هذه الكائنات أن تنتظر نهاية هذا الحوار غير المفهوم، ومع ذلك يوجد لدى هذه الأرواح نوع ما من السرور المبهم فى وسط معاناتها، ودون أن تعرف ما يُنصت فى داخلها إلى كل قوانين الحياة والموت والحب، التى تحوم حول المنزل كأنهار لا ينضب ماؤها.

وتجرى هذه الأمور فى كل مكان بصفة مستمرة، ونحن لا نعيش إلا وفقاً لذاتنا الشفافة التى تخترق الأفعال والأفكار من خلال الغلاف، الذى يحيط بنا فى كل لحظة. وسأرى اليوم أحد الأصدقاء الذى لم يسبق أن شاهدته قط من قبل، وإن كنت أعرف أعماله وأعرف أن ذاته غير عادية وأنه أمضى حياته فى العمل على إظهار نفسه بكل دقة - بقدر الإمكان - طبقاً لجوانب ذكائه العليا. ودخل الصديق، لكن عند حركة

الباب الذي انفتح عندما جاء، تفتت كل التوضيحات التي سبق أن قدمها لنا خلال سنوات عديدة. ولم يكن هو ذلك الكائن الذي اعتقدت أنه يكونه، لأنه من طبيعة أخرى غير أفكاره. وهكذا نلاحظ مرة أخرى أن ما يبعث به الفكر إلينا غير دقيق، وقد ذكر الصديق عن نفسه أشياء شديدة العمق، لكن في تلك اللحظة القصيرة التي تفصل بين النظرة الثاقبة والنظرة البعيدة، علمت كل ما لا يستطيع أبداً أن يقوله، وكل ما لا يمكنه أن يعيش في فكره. وبلا عودة، ومن الآن فصاعداً أصبح هذا الصديق يخصصني، أما قبل ذلك، فكان يجمعنا الفكر، ويوجد اليوم شيء أكثر غموضاً ألف ألف مرة من الفكر يجمعنا الواحد مع الآخر، وقد كنا ننتظر هذه اللحظة منذ سنوات، وقد صرنا نشعر أن كل شيء أصبح عديم الجدوى، لكننا لا نخشى الصمت لأننا نحن الذين هُيئنا كي نكشف لأنفسنا عن الكنوز الخفية العجيبة ؛ كنا نتحدث عن الساعة التي تدق أو عن الشمس التي تغيب حتى نعطي لذواتنا الوقت، لتعجب بنفسها وتنخرط في صمت آخر يختلف عن تمتمة الشفاه، وعن الفكرة التي يمكنها تعكير هذا الصمت...

وفي العمق لا يمكننا الحياة إلا من نفس إلى نفس أخرى، وقد نكون آلهة لا تعرف ذاتها. وإذا كان من المستحيل لي، هذا المساء، أن أتحمّل وحدتي، فإنني إذا نزلت وسط الناس سيقولون لي إن العاصفة قد أسقطت ثمار الكمثرى الخاصة بي، أو أن نوات الجليد قد أغلقت الميناء، فهل نزلت إليهم من أجل ذلك؟ ومع ذلك سأنصرف ونفسي راضية ومملوءة بالقوة أيضاً وبالكنوز الجديدة، كما لو كنت أمضيت هذه الساعات مع أفلاطون أو سقراط أو مارك أوريل Marc-Aurèle، وما كان يقوله هؤلاء بأفواههم لم يكن يُسمع بجانب ما يعلن عنه حضورهم، ومن المستحيل على الإنسان ألا يكون عظيماً وجديراً بالإعجاب. وليس لما يعتقده الفكر أهمية بجانب حقيقة وجودنا الذي يتأكد في صمت، وإذا كان "إبيكتت Epictète"^(٢) وجوته والقديس بولس قد عاشوا في أعماقي

(٢) إبيكتت Epictète فيلسوف سوفسطائي من القرن الأول، ولد في هيرابوليس، وقد اعتبرت "أحاديثه" Entretiens، وكتابه الموجز Le Manuel السوفسطائية مذهباً أخلاقياً يقوم على التفريق بين ما يعتمد على الفرد، وما لا يعتمد عليه.

وفى جزيرتى، فإنه لا يمكنهم، بعد خمسين سنة من الوحدة، أن يذكروا لى ما قد تقوله لى فى الوقت نفسه، وربما فوراً، الرغبة الصغيرة التى تصدر من سفينة يركبونها.

وفى الحقيقة نجد أن أكثر شىء غرابة فى الإنسان هو جاذبيته وحكمته المختلفتان. وأكثر الناس حباً للهزل لا يضحك - فى الواقع - بيننا أبداً. ورغم كل ما يبذله، فإنه لا يتوصل أبداً إلى أن يضيع دقيقة؛ لأن النفس البشرية فى حالة ترقب دائم ولا تفعل شيئاً بلا جدوى، لأن حياتنا جادة، ولم تبتسم حتى الآن فى أعماق نفسنا. وفى الجانب الآخر لتحركاتنا غير الإرادية، نعيش حياة رائعة ساكنة وشفافة جداً وأكيدة جداً تشير إليها الأيدي الممدودة باستمرار، والعيون التى تنفتح والنظرات التى تتقابل.

وتتوافق كل حواسنا مع وجودنا العلوى بطريقة صوفية، حيث لا يوجد الإنسان لكن توجد الروح التى عرفناها. إنتى لم أشاهد هذا الفقير الذى يتسول الإحسان على درجات سلم باب دارى، لكنى لاحظت شيئاً آخر؛ ففى أعيننا نرى قدرين متماثلين يحييان بعضهما ويحبان بعضهما بعضاً. وفى اللحظة التى يمد فيها الفقير يده يتوارب باب المنزل المطل على البحر للحظة. ويقول "إيمرسون": «فى علاقاتى مع ابنى، لا تقدم لى اللغة اليونانية واللاتينية كل ما أعرفه، وكل ما أملكه من ذهب لا يقدم لى شيئاً ولا نفع له عندى لأن المهم هو ذاتى وحدها، وإذا كانت لى إرادة فإن ابنى يعارضنى بإرادته، أى إرادة ضد إرادة، ويترك لى - إذا أردت عارا - سوء استخدام قوتى عندما أضربه على وجهه، لكن لو صرفت النظر عن إرادتى وتصرفت باسم الروح ووضعتها حكماً بيننا نحن الاثنين وسط عينيه الفتيتين، فإنه سينظر إلى الروح نفسها ويشعر بالاحترام والحب معى».

ولذا كان المؤكد أن آخر واحد منا لا يمكن أن يقوم بأقل حركة دون أن يضع اعتباراً للنفس وللمالكها الروحية التى تسيطر عليها، فإنه من الحقيقى أيضاً أن أكثر الحكماء لا يفكرون مطلقاً تقريباً فى اللانهاية، التى تتجاوز مجرد جفن ينفتح أو رأساً تنحنى أو يداً تنغلق. إننا نعيش بعيداً جداً عن أنفسنا، ونجهل كل ما يحدث فى أفق وجودنا، وستجول بعشوائية فى الوادى دون أن نشك فى أن كل حركاتنا تتكرر وأنها تكتسب

معانيها فوق قمة الجبل. وفي بعض اللحظات يجب أن يأتى من يقول لنا: ارفعوا أعينكم وانظروا ماذا تفعلون! لأننا لا نعيش هنا بل فى الأعلى. انظروا إلى هذه النظرة التى تبدلت فى الظلام، وإلى هذه الكلمات التى لم يكن لها معنى عند سفح الجبل، كيف كانت! وماذا صارت تعنى خلف جليد هذه القمم! وانظروا كيف أصبحت أيادينا التى كنا نظنها ضعيفة وصغيرة، تصل إلى الله فى كل لحظة دون أن تدرى.

لقد جاء البعض ليربت على الكتف وهو يشير بالأصبع إلى ما يحدث فى مستودعات الغموض الباردة، وهذه المستودعات الباردة ليست كثيرة، ويوجد منها فى هذا القرن ثلاثة أو أربعة، وفى القرون الأخرى خمسة أو ستة. وكل ما استطاعت هذه المستودعات الثلجية أن تقوله لنا لا يعد ذا شأن بالنسبة لما حدث وبالنسبة لما لا تجهله روحنا. لكن هل ذلك لا يهم؟ ألسنا نشبه رجلاً فقد عينيه فى سنوات طفولته الأولى؟ لقد رأى المناظر المتعددة للكائنات؛ رأى الشمس والبحر والغابة. والآن أصبحت هذه العجائب موجودة فى مادة كيانه هو. وإذا تحدثت عن ذلك، فماذا يمكن أن تقول له، وما قيمة كلماتك البسيطة بجانب هذه اللانهائية وأمام العاصفة وأمام ابنلاج الصبح، وهى كلها أمور لا تزال تعيش فى أعماق فكره وجسده؟ ورغم ذلك سيصفى إليك بمرح شديد وعجيب مع معرفته بكل شئ، وإدراكه أن كلماتك تجسد ما يعرفه هو بشكل غير كامل، فكوب الماء لا يمثل نهراً كبيراً، كما أن الجمل الصغيرة العاجزة التى تسقط من فم البشر تضىء المحيط للحظة، وتبعث النور إلى أوراق الشجر السوداء النائمة تحت جفون ميتة.

وتتعدد فى الغالب أوجه هذه "الذات الشفافة"، التى يتحدث عنها "نوقاليس" والتى لم يستطع أى عالم أخلاق صوفى أن يدرسها بالكيفية نفسها. ويقوم "سوينبرج Swedenborg"، و"بسكال ونوقاليس، وهيللو" وآخرون بفحص علاقاتنا مع اللانهائية المجردة الدقيقة البعيدة عنا جداً، وقد ساروا بنا إلى جبال لا تبدو قممها طبيعية أو مسكونة ونتنفس فيها بصعوبة، ويصطحب "جوته" ذاتنا إلى شواطئ بحر الصفاء. أمّا "مارك أوريل" فإنه يجلس هذه النفس بالقرب من التلال الإنسانية للطيبة الكاملة والمتعبة، تحت أغصان

أشجار كثيفة مثقلة بالاستسلام دون أمل، وفي أقصى الجانب الآخر من الوادي، يقوم "كارليل" الأخ الروحي لإيمرسون، بتحذيرنا ويمرر أمامنا - مثل الومضات السريعة - اللحظات البطولية لوجودنا، وحدها، مستنداً إلى خلفية مكونة من الظلال والعواصف التي تحدث باستمرار من شيء مجهول شرس، وهو يقودنا مثل قطيع ألقى به العواصف إلى مراعى مجهولة كبريتية، ويدفعنا إلى أعماق الظلام الذي اكتشفه بسعادة لا ينيره إلا نجم حاد متقطع النور خاص بالأبطال، ثم يتركنا لعقوبات انتقامية غيبية كبيرة مع ضحكة ساخرة.

وفي الوقت نفسه نجد إيمرسون، ذلك الراعى الصالح لتلك الحقول الخضراء الشاحبة مع تفاؤل جديد طبيعي ومقبول، ولا يسير بنا إيمرسون إلى جانب الهاويات، ولا يخرجنا من المحيط العائلي المتواضع، لأن المناطق الباردة والبحر والجليد الدائم، والقصر والحظيرة، وموقد الفقير المنطفيء وسرير المريض، تقع كلها تحت سماء واحدة جعلتها القوى اللانهائية نفسها شفافة نقية.

وقد جاء "إيمرسون" - بالنسبة لكثيرين - في الوقت الذي كان ينبغي أن يأتي فيه، وفي اللحظة التي كانوا فيها في حاجة ماسة إلى توضيحات جديدة، ولا تظهر ساعات البطولة كثيراً، أما ساعات إنكار الذات فلم يحن أوانها بعد، ولم يعد تبقى لنا سوى الحياة المعتادة اليومية. ومع ذلك، فإننا لا نستطيع أن نعيش دون عظمة. لقد أعطى "إيمرسون" تقريباً معنى لهذه الحياة التي لم تعد لها أبعادها التقليدية، وربما استطاع أن يرينا كم هي غريبة وعميقة إلى حد ما، وكبيرة بحيث لا يكون لها غاية إلا هي ذاتها، ولم يعرف منها "إيمرسون" أكثر مما يعرفه الآخرون؛ لكنه يؤكد ما يعلمه بشجاعة أكبر واثقاً في ما هو غيب. ويجب عليكم أن تعيشوا يا من تقضون الأيام والسنين دون أعمال، ودون أفكار، ودون نور؛ لأن حياتكم - رغم كل شيء - غير مفهومة وربانية. يجب أن نحيا؛ لأنه ليس من حق أحد أن ينسحب وينأى بنفسه عن الأحداث الروحية، التي تقع في الأسابيع المعتادة، ويجب أن نعيش لأنه لا توجد ساعات تمضي دون معجزات خاصة ودون أن تكون لها معان لا يمكن وصفها، ويجب أن نحيا لأنه

لا يوجد عمل ولا كلمة أو حركة تفلت من ادعاءات لا يمكن شرحها في عالم «توجد فيه أشياء كثيرة يجب القيام بها وأشياء قليلة يجب أن نعرفها».

ولا توجد حياة كبيرة أو حياة صغيرة، كما أن ما فعله "ريجولوس" "Regulus"^(٤) أو "ليونيدس" "Léonidas"^(٥) ليس له أهمية على الإطلاق حينما نقارن ما قاما به مع لحظة من الوجود السرى لروحي، وتستطيع نفسى أن تقوم بما فعلاه أو لا تقوم؛ لأن مثل هذه الأمور لا تؤثر فيها، كما أن نفس "ريجولوس" عندما عاد إلى قرطاجنة كانت شاردة ولا مبالية مثل نفس العامل، الذى يذهب إلى المصنع. والنفس بعيدة جداً عن كل أعمالنا، وبعيدة جداً عن كل أفكارنا، وتعيش النفس وحدها، فى أعماقنا، حياة لا نتحدث عنها؛ كما لا يمكننا - بعد الآن - أن نتبين تنوع أنواع الوجود فى تلك الأعالي التى تسيطر فيها النفس.

ونحن نمشى متعبين تحت ثقل نفسنا، وليس ثمة تناسب بيننا وبينها، وربما لا تفكر أبداً فيما نفعله، وإن كان مقروءاً على وجهنا. وإذا كان من المستطاع أن نسأل أية عقلية فى عالم آخر عن التعبير الاصطناعى لوجه البشر، فإنها ستترد بلا شك، بعد أن سبق لها أن شاهدت البشر فى أفراحهم وأحزانهم وقلقهم، قائلة: «إنه يبدو أنهم يفكرون فى شيء آخر». كن عظيماً وحكيماً وبليغاً؛ ولن تكون نفس هذا الفقير الذى يمد يده فى ركن من الجسر شاعرة بالغيرة، لكن أنت نفسك قد تحسده على صمته.

ويحتاج البطل إلى رضا الإنسان العادى، لكن الإنسان العادى لا يطلب رضا البطل، ويستمر فى حياته - دون قلق - مثل أى شخص يحتفظ بكل كنوزه فى مكان أمين. ويقول إيمرسون: «عندما يتحدث "سقراط"، فإن "ليزيس" "Lysis"، و"منكسين" "Ménexène" لا يشعران بأى خجل من صمتهما، وهما أيضاً عظيمان، ويرجع إليهما سقراط

(٤) ماركوس ريجولوس: جنرال رومى مشهور، اشتهر بإنكار ذاته وإخلاصه لليمين الذى أداه، وقد مات من التعذيب فى مدينة قرطاجنة. (المترجم).

(٥) ليونيداس: ملك أسبرطة من سنة ٤٩٠ إلى سنة ٤٨٠ قبل الميلاد، ومات فى معركة مع الفرس (المترجم).

ويحبهما فى الوقت الذى يتحدث فيه؛ لأن كل إنسان يحوى فى داخله الحقيقة التى يتحدث بها إنسان بليغ، لكن - بسبب البلاغة التى ينطق بها الإنسان البليغ - تقل الحقيقة، ولذلك فإن سقراط يلتفت إلى هذين الصامتين العجيبين بكل اهتمام وبأجل احترام».

ويطمع الإنسان فى الإيضاحات، ويجب أن ندله على حياته، ويشعر المرء بالمتعة حين يجد - فى جهة ما - التفسير الصحيح لحركة صغيرة قام بها منذ خمسة وعشرين عاماً. وهنا لا توجد حركة صغيرة، لكن نجد معظم المواقف التى تتخذها نفسنا يومياً، ولن تجد فيها الطابع الخالد لفكر "مارك أوريل"، لكن مارك أوريل هو الفكر بامتياز. ومن جهة أخرى فمن منا يعيش حياة "مارك أوريل"؟ هنا يوجد الرجل ولا شىء أكثر من ذلك. إنه لم يكبر قسراً، لكنه فقط أكثر قرباً منا من المعتاد. إنه "جان" Jean الذى يقلّم أشجاره، و"بيير" Pierre الذى بنى منزله. إنك أنت الذى تحدثنى عن الحصاد، وأنا الذى أخذ بيدك؛ لكننا نحن الاثنين وُضعنا فى النقطة التى نصل فيها إلى الآلهة، ونشعر بالدهشة مما نصنعه؛ لأننا لم نكن نعرف أن كل قوى النفس كانت حاضرة، ولم نكن نعلم أن كل قوانين الكون كانت تنتظر حولنا، والتفتنا ونظرنا دون أن نقول شيئاً مثل أناس شاهدوا معجزة.

لقد جاء "إيمرسون" ليؤكد - بكل بساطة - هذه العظمة المتساوية والخفية لحياتنا، وقد أحاطنا بالصمت والإعجاب، ووضع بصيصاً من الضوء تحت خطوات الصانع الذى يخرج من ورشته. لقد أرشدنا إلى كل قوى السماء والأرض المنشغلة فى دعم العتبة التى يقف عليها جاران يتحدثان عن الماء، الذى يسقط أو عن الريح التى تهب. كما أنه يتجاوز اثنين من المادة يلتقيان، ويرينا وجه إله يبتسم فى وجه إله. إنه أكثر قرباً منا من أى شىء آخر فى حياتنا المعتادة. ويعتبر "إيمرسون" من أفضل أصحاب البصيرة، ومن أكثر الناس مثابرة ونزاهة ودقة، وربما من أكثرهم إنسانية. إنه حكيم الأيام العادية؛ لأن الأيام العادية ليست إلا مادة وجودنا، وتنقضى أكثر من سنة بلا ألام،

بلا فضيلة وبلا معجزات. علّما يا "إيمرسون" كيف نحترم الساعات القليلة للحياة. وإذا كنت قد استطعت أن أتصرف هذا الصباح طبقاً لفكر "مارك أوريل"، فلا ينبغي عليكم أن تبرزوا أعمالى؛ لأننى أعلم أنا أيضاً أن شيئاً ما قد حدث، لكن إذا كنت أظن أننى ضيّعت يومى فى أعمال صغيرة، وإذا كان بوسعكم أن تدلّوا عن أننى عشت بعمق كما يعيش البطل، وأن نفسى لم تفقد حقوقها، فإنكم ستقومون بعمل أكبر مما لو كنتم أقنعتمونى بأن أنقذ عدواً لى، لأنكم أكبرتم فى ذاتى مقدار عظمة الحياة والرغبة فيها، وربما أعرف غداً كيف أعيش باحترام.

الفصل الثامن

"نوفاليس Novalis"^(١)

يقول مؤلفنا: «يسير الناس عبر طرق مختلفة؛ ومن يتبعهم ويقارن بينهم سيرى نشأة وجوه غريبة»، وقد اخترت ثلاثة من هؤلاء الناس تؤدي بنا مسالكهم إلى ثلاث قمم مختلفة. لقد رأيت في الأفق مؤلفات "روسبروك"، ومشارف الروح المائلة للزرقة وهي تتلألأ، بينما كانت مؤلفات "إيمرسون"، التي تمثل القمم الأكثر بساطة للقلب الإنساني وهي تدور حول نفسها في حركة غير منتظمة. أما هنا، فنجد أنفسنا على قمم مدببة وخطيرة على العقل في معظم الأحيان، ومع ذلك توجد فيها منتجعات يملأها ظل ظليل بين التعرجات المخضرة لهذه القمم، كما أن الجو فيها صاف مثل الكريستال.

ومن الجدير بالإعجاب أن نشاهد كم تختلف مسالك النفس الإنسانية حين تسير نحو ما يتعذر الوصول إليه، وهكذا يجب أن نتبع للحظة آثار هذه النفوس الثلاثة التي ذكرتها للتو. وقد ذهبت - كل في سبيلها - بعيداً عن المراكز الأكيدة للإدراك المعتاد. وتواجهت كل منها مع حقائق غير متشابهة يتعين علينا - مع ذلك - أن نتلقاها كأخوات مُعجزات تم العثور عليها. والحقيقة الخافية هي التي تجعلنا نعيش ونحن عبيد لها باللاوعي وبالصمت، ونجد أنفسنا مقيدين ما دامت لا تظهر هذه الحقيقة، ولكن إذا

(١) فردريك نوفاليس: كاتب ألماني ولد عام ١٧٧٢ ومات سنة ١٨٠١، وهو يجمع بين الصوفية والتفسير الرمزي للطبيعة، ومن أشهر قصائده: "أنشيد الليل"، أتباع سايس Saïs، وكتب رواية ناقصة عنوانها: هنري دوفتردنجن. (المترجم).

اشتبه واحد من هذه الكائنات غير العادية التي تعتبر بمثابة هوائيات للنفس البشرية الواحدة وإن كانت متعددة، في هذه الحقيقة للحظة واحدة وهو يتحسس في الظلمات، فإن الآخرين منا سيشعرون بالتححرر من شيء ما كرد فعل لا يمكن تفسيره، وستظهر حقيقة جديدة أكثر سموً وأكثر شفافية رغم غموضها، وستحل محل الحقيقة التي رأت نفسها قد انكشفت وأثرت الهروب بلا عودة. كما أن نفس الجميع ستبدأ - دون أن يكشفها أحد من الخارج - عصراً أكثر صفاء من الاحتفالات العميقة حيث لا يكون نصيبنا منها سوى جزء متأخر شديد البعد، وأعتقد أنها ستصعد بهذا الشكل وتسير إلى هدف تعرفه هي وحدها.

وكل ما يمكن أن نقوله ليس شيئاً في ذاته، ولنضع في كفة ميزان كل كلمات الحكماء العظام، وفي الكفة الأخرى حكمة اللاوعي التي يتمتع بها هذا الصبي المارّ أمامنا، وسترى أن كل ما أظهره لنا "أفلاطون"، و"مارك أوريل"، و"شوبنهاور" و"بسكال" لن يرفع لسطر واحد الكنوز العظيمة للوعي، لأن الصبي الذي يصمت أكثر حكمة ألف مرة من "مارك أوريل" الذي يتحدث. ومع ذلك، فإذا لم يكن "مارك أوريل" قد كتب الفصول الاثني عشرة لكتابه "التأملات" فإن قسماً كبيراً من الكنوز المجهولة التي يحويها هذا الصبي، لم يكن ليكون على هيئته التي نعرفها. وربما لا يكون بالاستطاعة الحديث بوضوح عن هذه الأشياء، لكن هؤلاء الذين يعرفون كيف يسألون أنفسهم بعمق كافٍ، وكيف يعيشون ولو لومضة خاطفة طبقاً لكل مكونات كينونتهم، يشعرون أن ذلك موجود. وربما يمكن - في يوم ما - أن نكتشف الأسباب التي من أجلها لا تكون نفس الفلاح، الذي لم يقرأ لأفلاطون و"سويدنبرج" و"بلوتان" ولم يسمع عنهم قط في حالة ما إذا لم يوجدوا، على ما هي عليه اليوم بشكل قطعي، لكن مهما كان الأمر، فإن أية فكرة لا تضيع أبداً من أي نفس ومن سيذكر لنا أجزاءنا، التي لا يمكنها الحياة إلا بفضل الأفكار التي لم يُعبر عنها مطلقاً؟ ولوعينا أكثر من درجة، ولا يقلق أكثر الناس حكمة من أن وعينا يعتبر إلى حد ما لا وعي، لأن هذا الوعي على وشك أن يكون ربانياً، ويبدو أن زيادة هذا الوعي الشفاف كانت دائماً رغبة مجهولة وسامية من جانب البشر. وليس من المهم كثيراً أن يجهل الناس هذا الوعي لأنهم يجهلون كل شيء، ومع ذلك

يتصرفون فى ذاتهم بحكمة مثل أكبر الحكماء. ومن الحقيقى أن معظم الناس لا ينبغى أن يعيشوا للحظة سوى اللحظة التى يموتون فيها. وانتظاراً لذلك فإن هذا الوعى لا يزيد إلا بقدر ما يزيد ما لا يمكن شرحه حولنا. إننا نعمل على أن نعرف لتتعلم ألا نعرف، ولا نكبر إلا إذا عملنا على تضخيم الأسرار التى تتعبنا، ونحن عبيد لا يمكنهم أن يحتفظوا فى داخلهم بالرغبة فى الحياة إلا بشرط أن يزداد ثقل أغلالهم دون رحمة ودون أن تثبط همتهم أبداً...

ويعتبر تاريخ هذه القيود الرائعة هو تاريخنا الوحيد؛ لأننا لسنا سوى سر غامض؛ ولأن ما نعرفه ليس مهماً. وحتى الآن، لا يعتبر التاريخ طويلاً، وهو يُختصر فى بضع صفحات، وقد يقال إن أفضل الناس يخشون أن يفكروا فيه. من هم القليلون الذين تجرءوا على السير إلى أقصى الفكر الإنسانى! اذكروا لى أسماء أولئك الذين ظلوا يضع ساعات فى هذا الفكر... لقد وعد أكثر من واحد بهذا وقام به البعض للحظة، ولكن سرعان ما كانوا يفقدون - كل بدوره - القوة اللازمة للعيش هنا، وكانوا يتساقطون ناحية الحياة الخارجية، وفى المجالات المعروفة للعقل الإنسانى «وكان كل شىء يطفو من جديد أمام الأعين، كما كان الحال فى السابق».

وفى الواقع، من الصعب أن يستجوب المرء نفسه ويتعرف على صوته الطفولى أيام الصبا وسط الصيحات غير المفيدة التى تحيط به، ورغم هذا فعندما نفكر فى جهود العقل لا نجد لذلك أهمية كبيرة، نظراً لأن حياتنا العادية تمر بعيداً عنا! وقد يقال إن هناك لا يوجد سوى أشباهنا، وسوى ساعات فارغة طائشة وعقيمة؛ لكن هنا نجد النقطة الثابتة الوحيدة لوجودنا ونجد أيضاً مكان الحياة. ويجب أن نلجأ لهذا المكان باستمرار، ونحن نعرف كل الباقي قبل أن يقال لنا. وهنا نتعلم أكثر ونقول كل ما يمكن أن نقوله؛ وفى اللحظة التى تتوقف فيها الجملة وتختفى فيها الكلمات، تواجه فيها نظرتنا القلقة، فجأة وعبر سنوات وقرون، ونظرة أخرى كانت تنتظرها بصبر على طريق الله. وتتغامز الجفون وتبتل العيون بالندى الرقيق المريع، الذى ينشأ من هذا السر الغامض المتماثل، ونعرف عندئذ أننا لم نعد وحدنا فى الطريق الذى لا نهاية له.

لكن أين هي الكتب التي تحدثنا عن مكان الحياة هذا؟ إن علماء ماوراء الطبيعة لا يكادون يلامسون هذا الموضوع؛ لأن حدوده قد تم تجاوزها، وإذن ماذا تبقى بعد ذلك؟ بعض الصوفيين الذين يبدون كالمجانين، لأنهم ربما كانوا يمثلون طبيعة فكر الإنسان نفسه لو كان لديه الوقت أو القدرة على أن يكون إنساناً حقيقياً. ولأننا نحب - من قبل - كل أساتذة العقل العادي مثل "كانت" و"سبينوزا" و"شوبنهاور" وغيرهم، فلا ينبغي أن يكون هذا الحب سبباً كي نرفض أساتذة عقل أخوي مختلف ربما يكون عقلنا المستقبلي، وانتظاراً لذلك، ذكر لنا هؤلاء الفلاسفة أشياء لا بد منها.

افتح كتب أكبر علماء الأخلاق أو علماء علم النفس العاديين، فستجد أن كلاً منهم يتحدث عن الحب، والكراهية، والكبر، وعن عواطف قلبنا الأخرى؛ ويمكن لهذه الأشياء أن تعجبنا للحظة مثلما تعجبنا الورود المقطوفة من سيقان أشجارها، لكن حياتنا الحقيقية التي لا تتغير، تمضي على بعد ألف فرسخ من الحب، ومائة ألف فرسخ من الكبرياء. إن لنا ذاتاً لا تنضب وأكثر عمقاً من العواطف أو العقل المجرد.

ولا يتعلق الأمر بأن يقال لنا ما نشعر به عندما تهجرنا عشيقتنا، فهي قد تغادر اليوم، وتبكي عيوننا لكن نفسنا لا تبكي. وقد يحدث أن تعلم النفس بما حدث، وتحوله إلى ضياء؛ لأن كل ما يسقط فيها يكون مشعاً، وقد يحدث أيضاً أن النفس تجهل الحدث، وإذن فما جدوى الحديث عنه.

يجب أن تترك هذه الأشياء الصغيرة لمن لا يشعرون بأن الحياة عميقة. هل لو قرأت "لاروشوفوكو" La Rochefoucauld أو "ستندال" Stendhal هذا الصباح، فهل تعتقدون أنني اكتسبت أفكاراً تزيد من إنسانيتي، وأن الملائكة التي ينبغي أن تقترب منها صباحاً ومساءً ستجدني أكثر جمالاً؟ إن كل ما لا يتجاوز الحكمة التجريبية واليومية لا يخصنا وليس جديراً بنفسنا، وكل ما يمكن أن نتعلمه دون قلق، يصغر من شأننا.

وقد أبتسم بمشقة لو استطعت أن تبرهن لي أنني كنت أنانياً حتى في مجال التضحية بسعائتي وبحياتي، لكن ماذا تساوي الأنانية بالنسبة إلى غيرها من الأمور القوية التي أشعر أنها تعيش في داخلي لحياة تجلّ عن الوصف؟ إن القوانين الشفافة لوجودنا

لا توجد على عتبة العواطف، وقد يحدث - فى لحظة ما - ألا تفيدنا ولا تصل إلى حياتنا بعض ظواهر الوعي الاعتيادى، التى يمكن أن نسميه الوعي العاطفى أو وعى علاقات الدرجة الأولى. وأنا أوافق على القول بأن هذا الوعي يكون غالباً مهماً من جهة ما وأنه من الضرورى أن نعرف ثناياه، لكنه ليس سوى نبات على السطح وجذوره تخشى الحريق المركزى الكبير لوجودنا، وفى إمكانى أن أرتكب جريمة دون أن تقوم أية رياح خفيفة بإمالة أصغر قبس من هذه النار، إلا أنه من جانب آخر، يمكن لأى نظرة متبادلة أو لأى فكرة لم تكتمل بعد، أو لأى دقيقة تمضى دون كلام، أن تزيد من سعيير هذه النار وتحولها إلى زوابع فظيعة، داخل النفس بحيث تفيض على حياتى نفسها. ونفسنا لا تصدر الأحكام مثلاً نفعل نحن، إنه أمر خفى يتعلق بأهوائها، وهذا الشيء يمكن أن تصيبه لفحة ويتجاهل العاصفة ويجب البحث فيما يصيب هذا الشيء لأى كل شيء هناك، ونحن موجودون هناك.

وهكذا، ولكى نعود إلى هذا الوعي الاعتيادى الذى يسود على مسافات كبيرة من نفسنا، أقول إننى أعرف أكثر من عقلية لم يعد يدهشها التصوير الرائع لغيره "أوتللو" على سبيل المثال، وقد كان هذا التصوير نهائياً فى المراحل الأولى للإنسان، وسيظل جديراً بالإعجاب شريطة ألا نفتح الأبواب ولا النوافذ. ودون ذلك، فإن الصورة ربما تسقط متناثرة كالترام أمام كل مجهول يوجد فى الخارج. ونحن نستمتع إلى حوار "مور" "More" و"ديدمونة" "Desdémone"، كأنه شيء كامل رغم أنه لا يمنعنا من التفكير فى مسائل أكثر عمقاً. وسواء انخدع مقاتل إفريقى أمام جمال فينيسياً أم لا، فإن له حياة أخرى تمر فى ذاته وحول وجوده فى اللحظة نفسها، التى تبدو فيها شكوكه وغضبه الشديد أمام أحداث كبرى لا يمكن لزيئره أن يعكرها، ومن خلال الاضطرابات السطحية للغيرة يتتابع وجود غير محسوس لم تظهره عبقرية الإنسان حتى الآن إلا بصفة عابرة.

فهل من كل ذلك يولد الحزن الذى يصدر من الأعمال الأدبية الكبرى؟ إن الشعراء لم يتمكنوا من كتابة هذه الأعمال إلا عندما أغمضوا أعينهم فى الآفاق الرهيبة، وعندما فرضوا الصمت على أعلى الأصوات وأكثرها فى نفوسهم، ولو لم يكونوا قد

فعلوا ذلك لفقدوا شجاعتهم. وليس هناك ما هو أكثر حزنًا وإحباطًا من عمل أدبي كبير؛ لأن شيئًا آخر لا يمكنه أن يظهر - بأفضل الصور - عجز الإنسان عن الوعي بعظمته وعزته. وإذا لم يكن هناك صوت ينبهنا بأن أجمل الأشياء لا تعتبر شيئًا بالنظر لكي نونتنا، فإن غياب هذا الصوت سيقبل من شأننا أكثر.

ويقول "إيمرسون" إن النفس تتفوق على كل ما يمكن أن نعرفه عنها، وتعتبر أكثر حكمة من كل ما يصدر عنها من أعمال، ويجعلنا الشاعر الكبير نشعر بقيمتنا الحقيقية، وعندئذ لا نقدر ما أنجزه حق قدره.

لكن أفضل شيء علمنا إياه هذا الشاعر، هو ازدياد كل ما فعله، ويأخذنا "شكسبير" إلى تيار شديد السمو من النشاط الذكي إلى حد أن يقترح علينا أن نقوم بما هو أكثر ثراء يبدو معه أن ما فعله هو ضئيل، وأتذكّر أن الأعمال العظيمة التي أبدعها - والتي تسمو بنا إلى قمة الشعر الذي يوجد بذاته - لم تعد تنتسب بعمق إلى الطبيعة الحقيقية للأمور، وتظهر كأنها ظل عابر لأحد المارين فوق صخرة.

وليست الصيحات العظيمة للقصائد والتراجيديات الكبرى شيئًا آخر سوى صيحات صوفية لا تتعلق بالحياة خارج هذه القصائد أو خارج هذه التراجيديات. وتنشأ هذه القصائد للحظة من الحياة الداخلية وتجعلنا نأمل في شيء غير منتظر، وإن كنا ننتظره بفارغ الصبر! إلى أن تغطيه العواطف - مرة أخرى - بجليدها. وفي تلك اللحظات توجد الإنسانية للحظة مع نفسها، كما يوجد إنسان مع ملك. ومع ذلك فمن المهم أن توجد الإنسانية في معظم الأوقات مع نفسها لتعرف ما هي. ولو نزل كائن إلينا من عالم آخر وطلب منا أفضل زهور نفسنا، والألقاب النبيلة في الأرض، فماذا سنعطيه؟ سيحضر له البعض الفلاسفة دون أن يعرف ماذا يفعلون. وقد نسيت أن أقول إن شخصًا آخر قد يرد على هذا التساؤل قائلاً: إنه سيقدم له "أوثللو" "Othello"، أو "الملك لير" أو "هاملت". حسنًا، إننا لسنا على هذا النحو! وأعتقد أن نفسنا قد يذهب بها الأمر إلى حد أن تموت داخل أجسادنا من العار؛ لأنها لا تجهل أن كنوزها المرئية لم تصنع لتكون منفتحة أمام عيون الأجانب، حيث إنها لا تحوى إلا مجوهرات مزيفة. ويشعر أبسط واحد منا - في لحظات الوحدة التي يعرف فيها ما يجب أن يعرفه المرء -

بأن من حقه أن يقدم نفسه بصورة أخرى غير أعماله الأدبية الرائعة. إننا مخلوقات غير مرئية، ولن يكون أمامنا ما نقوله لمبعوث السماء، ولا ما نريه إياه، وفجأة ستظهر لنا أجمل الأشياء عندنا مثل المخلفات العائلية الضئيلة التي كانت تبدو لنا ثمينة جداً في الدرج الموضوعة فيه، والتي تصبح زهيدة جداً حينما نخرجها للحظة من الظلام لنريها لمن لا يكثرث بها. إننا كائنات غير مرئية لا تعيش إلا في ذاتها، وسينصرف الزائر المنتبه، نون أن يشك فيما كان يمكنه أن يراه، اللهم إلا إذا تدخلت نفوسنا المتسامحة في هذه اللحظة. والنفوس تهرب طواعية جداً أمام الأشياء الصغيرة، ونتعب كثيراً في إيجادها - مرة أخرى - في الحياة، إلى حد أننا نخشى استدعاءها لمعاونتنا. ومع ذلك، فهي دائماً حاضرة، وهي لا تخدع نفسها ولا تخدع أحداً، مادامت مستقرة في مكان، وهي قد تظهر للمبعوث غير المنتظر، الأيدي المضمومة للإنسان، وعينيهِ المغمورة جداً بالأحلام التي ليس لها اسم، وشفتيه اللتين لا تقولان شيئاً. أما المبعوث، فربما لا يجروء على السؤال رغم جدارته بالفهم.

وإذا كان يلزم له براهين أخرى، فإن النفس ستصحبه إلى هؤلاء الذين تتعلق أعمالهم بالصمت، وستفتح المجالات التي يحبها فيها البعض لذاتها، دون الاكتراث بحركات جسمها الصغيرة، وسيصعد الاثنان إلى أعالي الهضبات المنعزلة، حيث يرتفع الوعي درجة، وحيث يتسكع كل من يقلقون من أنفسهم حول الدائرة المتوحشة التي تربط العالم الظاهر، إلى عوالمنا العليا. وستذهب النفس مع المبعوث إلى حدود الإنسان؛ لأنه في المكان الذي يبدو فيه الإنسان على وشك النهاية، تبدأ البداية التي لا توجد أجزاءها الرئيسية التي لا تنفذ إلا فيما هو غير مرئي، وحيث يجب أن يكون الإنسان في حالة ترقب مستمرة. وعلى هذه الأعالي وحدها توجد الأفكار التي يمكن أن تفصح عنها النفس، وتلك التي يمكن أن تشبهها وتكون قاهرة مثلها، وهناك سادت الإنسانية لبرهة؛ وربما كانت تلك المناطق ذات النور الضعيف بمثابة الأضواء الوحيدة، التي تبين الأرض في الأماكن الروحية، وانعكاساتها لها بالفعل هي لون نفوسنا. ونحن نحس أن عواطف العقل والقلب تبدو في ظل العقلية الغريبة، مشابهة لتضارب أصوات أبراج الأجراس؛ لكن الناس الذين أتحدث عنهم، يخرجون، طبقاً لمؤلفاتهم - من قرية العواطف الصغيرة - ويتحدثون عن أمور يمكن أن تهم من هم خارج الأبراشية الأرضية.

ولا ينبغي أن تتحرك إنسانيتنا فقط في عمق المرء مثل قطيع من الطوبيين^(٢) وعلى الإنسان أن يعيش كما لو كان عليه ذات يوم أن يقدم كشفًا عن حياته إلى أشقائه الكبار. ولا يعتبر العقل المنطوي على نفسه، إلا شيئًا معروفًا بصفة محلية، يثير ابتسام المسافر الرحال، ذلك لأنه يوجد شيء غير العقل، إذ إن العقل ليس هو الذي يربطنا بالكون. وقد حان الوقت كي لا نخلطه مع النفس، ولا يتعلق الأمر بما يحدث بيننا، لكن بما يحدث فينا متجاوزًا العواطف والعقل. وإذا لم أقدم للفكر الخارجي سوى "لارشوفوكو" "La Rochefoucauld"، و"ليختبرج" "Lichtenberg"، و"ميريديث" "Meredith" أو "ستاندال"، فإنه سينظر إليّ، كما أنظر أنا، في عمق مدينة ميتة، إلى بورجوازي فاقد الأمل يحدثني عن الشارع الذي يقيم فيه، وعن زواجه وصناعته. ما هو ذلك الملك الذي سيسأل "تيتوس" "Titus" لماذا لم يتزوج "بيرينيس" "Bérénice"، ولماذا كانت "أندروماك" "Andromaque" من نصيب "بيروس" "Pyrrhus"؟ ماذا تعني "بيرينيس" "Bérénice" إذا قارنتها بما هو غير مرئي بتلك المتسولة، التي تستوقفني أو العاهرة التي تشير إليّ؟ إن الكلمة الصوفية تستطيع وحدها أحيانًا، أن تمثل كائنًا إنسانيًا، لكن نفسنا ليست في هذه المناطق الأخرى التي لا يوجد فيها ظل ولا حفر، وأنت أيضًا ألا تتوقف فيها في ساعات الشدة التي تثقل فيها الحياة كاهلك؟ إن الإنسان ليس في هذه الأشياء، ومع ذلك فإن هذه الأشياء كاملة، ولكن لا ينبغي الحديث عنها إلا في ذاتك، ومن المناسب ألا نتحدث عنها إذا طرق بابنا أحد الزوار ذات مساء، لكن إذا فاجأني هذا الزائر في اللحظة التي تبحث فيها نفسي عن مفتاح خزانة الأقرب إليها في "بسكال" "Pascal"، و"إيمرسون" "Emerson" أو "هيللو" "Hello"، أو حتى في أعمال أولئك الذين قلقوا على الجمال الشديد الصفاء، ولن أغلق هذا الكتاب وأنا محمّر الوجه؛ وربما تتولد لدى "نوفاليس" "Novalis" نفسه فكرة وجود مخلوق شقيق له كتب عليه الصمت، أو ربما سيعلم على الأقل أننا لم نكن جميعًا سكانًا راضين عن الأرض.

(٢) نوع من الحيوانات يأكل الحشرات. (المترجم)

الفصل التاسع

"المأساة اليومية"

توجد مأساة يومية أكثر واقعية وعمقاً وتناسباً مع وجودنا الحقيقي، وأكبر من مأسى المغامرات الكبرى. ومن السهل أن نشعر بها، لكن ليس من اليسير إظهارها، لأن هذه المأساة الأساسية ليست مجرد تراجيديا مادية أو نفسية، إذ لم يعد الأمر هنا متعلقاً بالصراع الذى يحتدم بين كائن وآخر، أو بتنازع رغبة مع رغبة أخرى، أو بالمعركة الأزلية بين العاطفة وبين الواجب، لكن ما يتعلق بإظهار كل ما هو مدهش فى موضوع الحياة وحدها، وبصفة خاصة ما يتصل بوجود نفسى ما فى ذات الحياة، وفى ظل هذه اللانهائية المتسعة التى لا تكون أبداً بلا حراك. وعلى الأخص؛ نجد أن الأمر يتعلق بالاستماع إلى حوار متقطع أكثر مهابة، عن الكائن البشرى ومصيره يتجاوز الحوارات العادية للعقل والمشاعر، ويتعلق الأمر على الأحرى، بجعلنا نتتبع الخطوات المتعثرة والمؤلة لكائن يقترب أو يبعد عن حقيقته، وعن جماله، أو عن إلهة؛ وكذلك يجعلنا نسمع آلاف الأشياء المتشابهة التى أظهرها لنا - بصفة عابرة - شعراء التراجيديات. وهذه هى النقطة الرئيسية: ألا يمكن أن يكون ما أظهره لنا - بشكل عابر - هو ما نحاول نحن إبداءه قبل غيره؟ ألا يكون ما نسمعه عن الملك "لير" Lear، وماكبث، وهاملت، على سبيل المثال، هو الترنيمة الغامضة للانهائية، أو الصمت الذى يهدد النفوس أو الإلهة، أو الخلود الذى يهتز فى الأفق، أو المصير الذى نحسه داخلياً دون أن نذكر العلامات التى تجعلنا نتعرف عليه. ألا نستطيع بطريقة ما وبتبادل للألوار، أن نقرب كل ذلك منا فى الوقت الذى يبعد فيه صانعو هذه الأمور؟ وإذن فهل من المجازفة أن نؤكد أن

مأساة الحياة، المأساة المعتادة، أو العميقة والعامة، لا تبدأ إلا في الوقت الذي يحدث فيه ما نسميه مغامرات أو آلام أو أخطار؟ أليس للسعادة ذراع أطول من التعاسة، وأليست بعض قواها تتقارب أكثر من النفس الإنسانية؟ هل يتعين بالضرورة أن نصيح مثل أفراد عائلة "الأتريد" "Atrides" حتى يظهر إله خالد في حياتنا، وألا يأتى هذا الإله أبداً ليجلس تحت مصباحنا الثابت.

ألا يعتبر الهدوء شنيعاً عندما نفكر فيه وعندما تراقب الكواكب؛ وألا ينتعش معنى الحياة وسط الصخب أو الصمت؟ ألا يدخل في نفوسنا القلق الشديد عندما يقال لنا في نهاية الحكايات: «وكانوا سعداء»؟ ألا تفصح السعادة أو حتى مجرد لحظة راحة عن أمور أكثر أهمية وأكثر استقراراً من تقلبات العواطف؟ ألا يبدو سير الزمن، وعدد كبير آخر من المسيرات الخفية أكثر وضوحاً في نهاية المطاف وألا تبدو الساعات متسارعة؟

ألا يؤثر كل ذلك في أوتار أكثر عمقاً من مجرد طعنة خنجر في الدراما المعتادة؟ ألا تفتح المأساة الغربية الصامته للكائن البشرى وللانهاية أبواب مسرحها، عندما يظن الإنسان أنه بمنأى عن الموت الخارجى؟ هل يصل وجودى إلى أهم نقطة له في الوقت الذى أتحاشى فيه طعنة سيف حاد. هل توجد أسمى درجات وجودى دائماً فى قبلة؟ ألا توجد لحظات أخرى نسمع فيها أصواتاً أكثر ثباتاً وأكثر نقاء؟ ألا تظهر نفسك إلا فى أعماق ليالى العاصفة؟ قد يقال إن الناس ظنوا ذلك حتى الآن؟ إن كل مؤلفى التراجيديا عندما لا ينتبهون إلا إلى الحياة الماضية، ويمكننا أن نؤكد أن مسرحنا مغلوط تاريخياً وأن الفن الدرامى يتأخر بقدر السنوات نفسها التى تأخر بها فن النحت. لكن الأمر يختلف بالنسبة للتصوير الزيتى والموسيقى الجيدة على سبيل المثال، إذ إنهما عرفا كيف يتخلصان من ذلك وأن يُظهرا ملامح أكثر خفية، لكن ليست أقل أهمية ودهشة من الحياة اليوم. لقد لاحظنا أن هذه الحياة لم تفقد من شأنها فى السطح الزخرفى إلا لكى تزيد فى العمق، وفى المعنى الخصوصى، والجديّة الفكرية. ولم يعد الرسام الجيد يقوم برسم "ماريوس" Marius قاهر السامبرين Cimbnes، أو يصور فى لوحاته اغتيال دون دى "جيز" Cjuise، لأن سيكولوجية الانتصار أو القتال أصبحت بدائية واستثنائية،

ولأن الضجة غير المفيدة لأى عمل عنيف، تخفت أكثر الأصوات عمقاً وسرية وتردداً بين البشر والأشياء، سيقوم الفنان برسم منزل بعيد فى الريف، أو باب مفتوح فى نهاية ردهة، أو بتصوير وجه أو أياد فى حالة استرخاء؛ وكل هذه الصور البسيطة يمكن أن تضيف شيئاً ما لوعينا بالحياة؛ وهذا شىء طيب لم يعد ممكناً أن نفقده.

ولكن مؤلفينا التراجيدين، وكذلك الرسامين منخفضى المستوى الذين يتوقفون عند رسم التاريخ، يركزون كل اهتمامهم فى أعمالهم، على تصوير العنف القصصى الذى يصورونه. ويزعمون أنهم يقومون بالترويح عنا - بنفس نوع الأعمال التى تسرّ البربر المعتادين على القتل والخيانة - هذا فى الوقت الذى تسير فيه معظم أمور حياتنا بعيداً عن الدم والصاروخ والسيوف، وأصبحت صامته غير مرئية وروحية تقريباً..

وعندما أذهب للمسرح، يبدو لى أننى أوجد لبضع ساعات وسط أجدادى القدماء الذين كان لديهم تصور بسيط للحياة، جاف ووحشى، لم أعد أذكره ولا يمكننى الإسهام فيه. إننى أرى زوجاً مخدوعاً يقتل زوجته، أو امرأة تقوم بدس السم لعشيقتها، أو ولداً ينتقم لأبيه، أو والداً يقتل أبناءه، أو أبناء يقتلون أباهم، أو ملوك يتم اغتيالهم، أو عذراوات يغتصبن، أو برجوازيين سيجنون، وكل نواحي العظمة التقليدية؛ لكن للأسف كل ذلك سطحى ومادى ملئ بالدم والدموع الخارجية والموت. ماذا يمكن أن يقول لى أناس ليس لديهم إلا فكرة ثابتة، وليس لديهم الوقت ليعيشوا، لأنه يتعين عليهم أن يقتلوا غريباً أو عشيقاً؟

وقد ذهب بى الأمل إلى أن أرى كل أمور الحياة، وقد ربطت بأصولها وأسرارها بأربطة ليس لى الفرصة أو القدرة على أن ألمح جمالها للحظة، وألمح عظمة وقوة وجودى اليومى المتواضع. كنت أود أن أرى مدى الحضور ومدى القوة، أو أى آلة تعيش معى فى غرفتى. كنت أنتظر دقائق سامية لا أعرفها، وأنا موجود وسط ساعاتى التعسة. ولم أعد أكتشف كثيراً الإنسان الذى أسهب فى أن يقول لى لماذا يشعر بالغيرة ولماذا يقوم بتسميم الآخرين أو لماذا يقتل نفسه؟

إننى أعجب "بأوثللو" "Othello"، لكن لا يبدو لى أنه يعيش الحياة اليومية العظيمة "لهاملت" "Hamlet"، الذى يجد لديه الوقت ليعيش لأنه لا يتحرك. إن "أوثللو" غيور بشكل رائع، لكن أليس من الخطأ البائد أن نعتقد فى اللحظات التى تملكنا فيها العاطفة وغيرها من المشاعر المماثلة، أننا نعيش حقيقة؟ لقد حدث أن اعتقدت أن شيخاً جالساً ينتظر على مقعده الوثير فى ضوء المصباح مصغياً إلى كل القوانين الأبدية، التى تسود حول منزله ومفسراً - دون أن يفهم - كل ما يوجد فى صمت الأبواب والنوافذ، وسامعاً لصوت النور الخافت، ومحتماً لوجود نفسه وقدره، ومميلاً رأسه قليلاً دون أن يشك فى أن كل قوى هذا العالم تتدخل وتسهر فى الغرفة مثل الخادمت المنتبهات، وجاهلاً أن الشمس نفسها تمسك - من فوق الهوة - بالمنضدة الصغيرة التى يستند إليها، وأنه لا يوجد نجم فى السماء ولا قوة للنفس لا تكون غير مكترثة بحركة جفن العين الذى ينخفض، أو بفكرة ترتفع، حدث لى أن اعتقدت أن هذا الشيخ الذى لا يتحرك، يعيش فى الواقع حياة عميقة أكثر إنسانية وأكثر عمومية من تلك التى يعيشها عاشق يخنق عشيقته، أو قائد يحرز انتصاراً أو «زوج ينتقم لشرفه».

وسيقال لى إن الحياة الثابتة لا يمكن أن تكون واضحة كثيراً، وإنه يجب تحريكها ببعض الحركات، وإن هذه الحركات المتنوعة والمقبولة لا توجد إلا فى هذا العدد الصغير من العواطف المستخدمة حتى الآن، وأنا لا أعرف ما إذا كان المسرح الاعتدالى مستحيلاً. ويبدو لى أنه موجود. وتعتبر معظم مسرحيات "أخيل" "Eschyle" تراجيديات ثابتة، وأنا لا أتحدث عن مسرحية "بروميتيه" "Prometée" أو عن مسرحية "البديلات" "les Supplantes" حيث لا يحدث شئ، لكن عن المسرحية التراجيدية "كيوفور" "Cohoéphores"، التى تعتبر أفزع مسرحية درامية قديمة تتعثر، كما لو كانت كابوساً يحدث أمام مقبرة أجاممنون، إلى أن يقع حادث القتل كالبرق من جراء تراكم الدعوات التى تنطوى على نفسها باستمرار. ولنبحث - عند وجهة النظر هذه - بعضاً من أجمل تراجيديات القدماء: "الإيمينيد" "les Eumenides" أو "أنتيجون" "Antigone" أو "إلكترا" "Electre" أو "أوديب" فى كولونوس. يقول الشاعر المسرحى الفرنسى "راسين" "Racine" فى مقدمة مسرحيته "بيرنيس" "Berenice": «لقد أعجبوا بمسرحة "أجاكس" "Ajax"

للكاتب المسرحي "سوفوكليس" "Sophocle"، وهي ليست شيئاً آخر غير أجاكس الذي يقتل نفسه من الأسف بسبب الغضب الذي وقع فيه بعد رفض تلقيه أسلحة "أخيلوس" "Achille"، وقد أعجبوا أيضاً بمسرحيته "فيلوكيتيس" "Philoctète" رغم أن موضوعها هو "أوليس" "Ulysse"، الذي حضر ليفاجئ سهام "هرقل"، بل إن مسرحية "أوديب" نفسها - رغم أنها مليئة بالاعترافات، تعتبر أقل ازدحاماً بالأحداث المادية من أقل مسرحية تراجيدية في أيامنا هذه».

فهل هذا شيء آخر غير الحياة الثابتة تقريباً؟

من المعتاد ألا يوجد حدث نفسى يتجاوز ألف مرة الحدث المادى، الذى يبدو أمراً لا مفر منه؛ لكن كُتاب المسرح يستطيعون تقنيه أو الحذف منه بطريقة رائعة؛ حتى لا يكون هناك اهتمام إلا بما يوحى به وضع إنسان فى الكون. ونحن هنا لم نعد نكون عند البرابرة، ولم يعد الإنسان يتحرك وسط العواطف الأولية، التى لا تعتبر وحدها أشياء مهمة فى حد ذاتها. وبوسعنا أن نرى هذا الإنسان على راحتنا، فلدينا الوقت؛ ذلك لأن الأمر لم يعد يتعلق بلحظة استثنائية وعنيفة من الوجود، لكن بالوجود نفسه. وهناك ألف قانون أكثر قدرة واحتراماً من قوانين العواطف؛ لكن تلك القوانين بطيئة وسرية وصامتة، تماماً مثل الذى تكون لديه قوة لا تقاوم، ولا تلاحظ ولا تسمع إلا فى منتصف النهار وساعات التأمل الهادئة فى الحياة.

وعندما قدم "أوليس" "Ulysse"، "ونيو بتوايم" "Néoptoième" ليطلب أسلحة "هرقل" من "فيلوكيتيس" "Philoctète"، كان سعيهما فى حد ذاته بسيطاً غير ذى بال، تماماً مثل إنسان فى أيامنا يدخل منزلاً ليعود فيه مريضاً، أو مثل ابن سبيل يطرق باب فندق، أو مثل أم تنتظر عودة ابنها بجوار المدفأة. ويميز "سوفوكليس" "Sophocle" بشكل سريع عابر، صفات أبطاله لكن ألا يمكننا أن نؤكد أن الاهتمام الرئيسى للتراجيديا لا يوجد فى الصراع الذى لا نراه فيها بين المهارة والود، بين رغبة الوطن وبين الأحقاد وعناد الكبرياء؟ وهناك شيء آخر يتمثل فى الوجود السامى للإنسان الذى سيتم مشاهدته. ويضيف الشاعر إلى الحياة العادية شيئاً لا أعرفه يعتبر من أسرار الشعراء،

ويظهر فجأة في عظمتة المعجزة، وفي انصياعه لقوى غير معروفة بعلاقاتها التي لا تنتهى، وفي بؤس مهيب. ولنتصور أحد الكيميائيين، وهو يترك بعض النقط الغريبة تسقط في دورق لا يبدو أنها تحتوى إلا على ماء صافٍ على الفور تطفو باللورات كثيرة حتى الحافة، وتظهر لنا المادة المعلقة في هذا الدورق، رغم أن عيوننا لم تلاحظ شيئاً من قبل. وهذا يبدو في مسرحية "فيلوكيتيس" "Philoctete" أن التحليل النفسى البسيط للشخصيات الرئيسية الثلاث، ليس سوى ساتر للدورق الذى يحتوى على الماء الصافى، الذى يمثل الحياة العادة التى يسقط فيها الشاعر النقط التى تظهر عبقريته..

وأيضاً لا يوجد الجمال والعظمة فى المسرحيات الكبيرة الجميلة فى الأفعال، لكن فى الكلام. لكن هل يوجد ذلك فقط فى الكلام الذى يصاحب ويشرح الأفعال؟ لا، بل يجب أن يوجد شيء آخر غير الحوار الخارجى الضرورى، ولا توجد غالباً غير الكلمات التى تبدو غير ذات فائدة فى البداية، وإن كان يحسب حسابها فى العمل المسرحى. وفيها توجد روح المسرحية، وإلى جانب الحوار - الذى لا بد منه - يوجد حوار آخر يبدو غير ضرورى. ابحث هذه المسألة بعناية، وستجد أن مثل هذا الحوار هو الوحيد الذى يمكن للنفس أن تستمع إليه بعمق، لأننا نحدثها فى هذا المكان فقط. وستكتشف أيضاً أن نوعية ومساحة هذا الحوار غير المفيد هما اللذان يحددان النوعية والأهمية القصوى للعمل الأدبى. ومن المؤكد أنه - فى المسرحيات الدرامية العادية - لا يتفق هذا الحوار الضرورى مع الحقيقة؛ وأن ما يحقق هذا الجمال الغامض فى أجمل التراجيديات يتمثل فى الكلمات، التى تُقال بجانب الحقيقة الملزمة الظاهرة. كما أن هذا الجمال يوجد فى الكلمات المتوافقة مع حقيقة أكثر عمقاً وتجاوزاً مع النفس غير المرئية التى تدعم القصيدة. بل يمكننا أن نؤكد أن القصيدة تقترب من الجمال والحقيقة العليا بقدر ما تُستبعد الكلمات التى تشرح الأفعال لتحل محلها كلمات تفسر وتحلل، ليست "حالة نفسية"، لكن جهوداً مستمرة لا أعرفها ولا أفهمها تقوم بها النفوس لتتجه إلى جمال هذه القصائد وحقيقتها. وفى ضوء ذلك أيضاً تقترب القصيدة من الحياة الحقيقية، ويحدث لكل إنسان فى الحياة اليومية أن يقوم بالعمل على أن يجد حلاً لوضع خطير جداً. فكر لحظة فى هذا الأمر. هل ما تقوله أو ما تسمعه من إجابات هو

أكثر الأشياء أهمية في هذه اللحظات دائماً أو حتى هو الأكثر اعتياداً؟ ألا تتدخل قوى أخرى وكلمات غير مسموعة أخرى لتحدد مصير الحديث؟ إن ما أقوله يعد - في معظم الأحيان - قليل الأهمية ولكن حضوري والموقف الذي تتخذه نسي مستقبلي وماضي وما يتولد مني، ويموت في، وفكري السري، والنجوم التي تتوافق معي، وقدرى، وآلاف الأشياء الغامضة التي تحيط بي وتحيط بك، كل ذلك هو الذي يتحدث إليك في هذه اللحظة المأساوية ويرد عليك. وكل هذا يوجد تحت كل كلمة من كلماتي وكلماتك، وهو ما نراه وما نسمعه بصفة خاصة رغماً عنا. وإذا كنت قادماً أيها «الزوج المهان»، وأيها «العاشق المخدوع»، وأيتها «المرأة المهجورة»، لتقصد قتلى، فإن أكثر توسلاتي بلاغة إليك ليست هي التي ستوقف ذراعك، لكن ربما يحدث أن تقابل إحدى هذه القوى غير المنتظرة، وأن تقول لك نفسى، التي تعرف أن هذه القوى تحمينى وتحيط بي، كلمة سرية تجعلك تلقى سلاحك. وما هي المجالات والمغامرات تتخذ قراراتها. وذلك هو الحوار الذى يتعين أن نسمع صداه، حقيقة أن هذا الصدى الذى نسمعه يضعف ويتنوع فى بعض الأعمال الأدبية الكبرى التى كنت أتحدث عنها، لكن ألا يمكن أن نحاول الاقتراب أكثر من هذه المجالات التى تجرى فيها كل الأمور «فى الحقيقة؟».

يبدو أن البعض يحاول ذلك، «ومنذ بعض الوقت - وبمناسبة إحدى المسرحيات الدرامية للمؤلف المسرحى "إبسن" "Ibsen"^(١)، حيث نستمتع فيها إلى أكثر حوارات الدرجة الثانية مأساوية، وهى مسرحية "سولنيس البناء Solness le Constructeur - كنت أحاول، بطيش كبير، أن أخترق هذه الأسرار، ومع ذلك فإن محاولاتي - التى تشبه يد الأعمى - الموضوع على جدار، كانت تتجه أيضاً نحو البصيص نفسه من الضوء. وكنت أتساءل عما إذا كان المؤلف قد أضاف فى مسرحية "سولنيس" شيئاً إلى الحياة كى تبدو لنا غريبة جداً وعميقة جداً ومقلقة جداً تحت ستار صبيانيتها الخارجية؟

(١) هنريك إبسن: كاتب نرويجى ولد سنة ١٨٢٨ ومات سنة ١٩٠٦، وقد أُلّف مسرحيات ذات طابع فلسفى واجتماعى أهمها مسرحية "بيت الدمية" "Maison de poupée" سنة ١٨٧٩، ومسرحية "البطة البرية" سنة ١٨٨٤ (المترجم).

ليس من السهل أن نكتشف ذلك؛ لأن هذا المؤلف المخضرم يحتفظ بأكثر من سر، بل يبدو أن ما أراد أن يقوله قليل بالنسبة لما تعين عليه أن يقوله. لقد أعطى الحرية لبعض قوى النفس التي لم تكن قط حرة، والتي ربما تكون قد امتلكتها. يقول "سولنيس" متعجباً "لهيلد" "Hilde": «ألا ترى.. ألا ترى! يوجد فيك سحر كما يوجد في أنا، وهذا السحر هو الذي يجعل القوى الخارجية تتحرك، ويجب أن نستجيب لها. وسواء أردنا أم لم نرد يجب أن نفعل ذلك».

ويوجد فيهما سحر كما يوجد فينا، وأرى أن "هيلد" و"سولنيس" يعتبران هما البطلان الأولان اللذان يشعران بأنهما يعيشان لحظة في مجال النفس، ويحسان بأن هذه الحياة الرئيسية التي اكتشافها فيهما - بعيداً عن الحياة العادية - تخيفهم. ذلك لأن "هيلد" و"سولنيس" نفسان شاهدتا وصنعهما في الحياة الحقيقية. وتوجد أكثر من طريقة نعرف بها الإنسان، وسأضرب مثلاً باثنين أو ثلاثة أراهم تقريباً في كل الأيام. ومن المحتمل أنني لا أتبين لوقت طويل حركاتهم، وعاداتهم الخارجية أو الداخلية، وطريقتهم في الإحساس والتصرف والتفكير، لكن بكل الود الكبير، تنشأ لحظة غامضة نلمح فيها، إذا صح القول، الوضع الحقيقي لصديقنا بالنسبة للمجهول الذي يحيط بنا، والموقف من القدر إزاء هذا الوضع. وانطلاقاً من هذه اللحظة يكون هذا الصديق صديقاً حقيقياً لنا. وقد رأينا لمرة واحدة غير متكررة، الشكل الذي تسير فيه الأحداث إزاءه، ونحن نعرف أن هذا الصديق فعل ما في وسعه، كي يقبع في منزله ويظل ثابتاً غير متحرك بقدر إمكانه، خشية أن يحرك شيئاً ما في مستودعات المستقبل - إلا أن حذره سيكون بلا طائل - كما أن الأحداث المتعددة التي ستجرى له ستكشف عنه في أي مكان يختبئ فيه وستقرع بابه مرات متعاقبة.

ومن جهة أخرى، فإننا لا نجهل أن هذا الصديق سيخرج بلا جدوى بحثاً عن كل المغامرات، وسيعود منها خاوي الوفاض. ويبدو أنه قد نشأ علم معصوم من الخطأ - دون سبب - في نفسنا في اليوم الذي كانت فيه عيوننا مفتوحة بهذا الشكل، ونحن متأكدون أن أي حدث يمكن أن يجري ويكون في متناول يد أحد الأشخاص لا يمكن أن يحدث.

ومن هذه اللحظة، ساد قسم خاص من النفس على صداقة أكثر الكائنات ذكاء، بل وغموضاً، ويوجد نوع من تغيير الحياة، وعندما تقابل بالصدفة واحداً من أولئك الذين نعرفهم في الوقت الذي نتحدث فيه عن الجليد أو عن النساء المارّات أمامنا، ينشأ في كل منّا شيء يحيي ذاته، ويتفحص نفسه، ويتساعل دون أن يعلم، ويهتم بالأوضاع ويتكلم عن الأحداث التي لا يمكننا فهمها.

وأظن أن "هيلد" و"سولنيس" يوجدان في هذه الحالة ويريان نفسيهما بهذه الكيفية، ولا تشبه كلماتهما في شيء ما سمعناه حتى الآن، لأن المؤلف حاول أن يجمع، في العبارات نفسها، الحوار الداخلي والخارجي معاً.

وتسود في تلك المسرحية السرّنية شيء ما لا أعرفه من القوى الجديدة، وكل ما يقال فيها يُخفى ويكشف في الوقت نفسه عن مصادر الحياة المجهولة. وإذا كنّا - في بعض اللحظات - نشعر بالدهشة، فلا ينبغي أن يغيب عنا أن نفسنا تكون غالباً - في نظر أعيننا المسكينة - قوة مجنونة جداً، كما أنه توجد في الإنسان مواضع كثيرة أكثر خصوصية وعمقاً وأهمية من تلك التي توجد في العقل أو الذكاء.

الفصل العاشر

"النجم"

يمكن أن تقول إنه - من قرن إلى قرن - تجول أحد الشعراء التراجيديين في متاهات القدر ومصباح الشعر في يده. وحدد الشعراء بهذه الطريقة - كل حسب قوة سعته - ذات السنوات الإنسانية؛ وبذلك صنعوا التاريخ الرباني. وفيهم وحدهم يمكن أن نتابع التنوعات التي لا حصر لها للقوة الأعظم التي لا تتغير، ومن المهم أن نتبعهم؛ لأن أكثر نفوس الشعوب صفاء قد توجد في أعماق الفكرة التي لديهم عن هذه القوة. ولم تمت هذه الفكرة بالكامل قط، لكن توجد لحظات تتحرك فيها بصعوبة، ونلاحظ عندئذ أن الحياة ليست شديدة الصلابة ولا شديدة العمق. ولم تُعبد هذه القوة بلا منازع إلا مرة واحدة؛ وكانت تُشكل - حتى بالنسبة للآلهة - سرّاً مخيفاً. ومن الغريب أن نلاحظ أن العصر الذي كانت فيه الألوهية بلا وجه؛ وبدا أكثر العصور إفزاعاً وأكثرها غموضاً غير مفهوم، كان أجمل عصور الإنسانية، وكان أكثر الشعوب سعادة هو الشعب الذي صور لنفسه القدر على أرفع شكل.

ويبدو أن هناك قوة سرّية في هذه الفكرة، أو أن هذه الفكرة تعتبر علامة على وجود قوة ما. فهل يكبر الإنسان بقدر ما يتعرف على عظمة المجهول الذي يسيطر عليه؛ وأين هو هذا المجهول الذي يكبر بقدر ما يكبر الإنسان؟ قد يقال اليوم إن فكرة القدر تستيقظ. ألا يكون من غير المفيد ألا نذهب للبحث عن هذه الفكرة، لكن أين نجدتها؟ ألا يعتبر الذهاب للبحث عن القدر بمثابة الذهاب للبحث عن الأحزان الإنسانية؟

لا يوجد قدر للفرح، ولا يوجد نجم للسعادة. والنجم الذى نسميه بهذا الاسم هو نجم يتحلى بالصبر. ومن جهة أخرى فإنه من المهم أن نخرج أحياناً للبحث عن أحزاننا حتى نعرفها ونعجب بها، فى الوقت الذى لا يبلغ فيه القسم الأكبر من قدرنا منتهاه.

وتتمثل أفضل الطرائق فى الخروج للبحث عن الذات؛ لأننا يمكن أن نقول إن قيمتنا تساوى قدر ما تساوى أوجه قلقنا واكتئابنا، ويقدر ما تتقدم يصبح هذا القلق وهذا الاكتئاب أكثر عمقاً وأكثر نبلاً وأكثر جمالاً. ويعتبر مارك أوريل **Marc-Aurèle** أفضل إنسان يُعجب الناس به، لأنه فهم أكثر من غيره ما وضعتة نفسنا فى الابتسامة البسيطة المستسلمة فى أعماقنا.

والشئ نفسه بالنسبة لأحزان الإنسانية. وهذه الأحزان تتبع طريقاً يتشابه مع طريق أحزاننا، لكنه أكثر طولاً وأكثر أمناً، وسيؤدى إلى أوطان لا يعرفون إلا من وصلوا متأخرين. ويبدأ هذا الطريق من الألم الجسمانى بعد أن مرّ - عن طريق الخوف بالآلهة - وهو يتوقف اليوم حول حفرة جديدة لم يسبر غورها من هم أفضل منا.

وكل قرن يحب المأ آخر؛ لأن كل قرن يرى قدراً آخر، ومن المؤكد أننا لم نعد نهتم - كما كان الحال فى الماضى - بالمصائب الناتجة عن انفعالاتنا، كما أن أكثر أعمال الماضى التراجيدية تتصف بحزن أقل من أحزاننا اليوم. وهذه الأعمال لا تصل إلينا إلا بطريقة غير مباشرة؛ لأن أفكارنا والنبل الجديد الذى اكتسبه فينا ألم الحياة يضيف إلى الأحداث البسيطة الكراهية أو الحب اللذين يتجلبان أمامنا.

ويبدو - فى بعض اللحظات - أننا على شفا تشاؤم جديد غامض ربما يكون أكثر شفافية. وأقسى الحكماء مثل "شوينهاور"، و"كارليل" والروس والاسكنديناويون و"إيمرسون" المتفائل الطيب هو الآخر؛ (لأنه ليس ثمة شئ أكثر إحباطاً من رجل متفائل بمحض إرادته) قد ذهبوا دون أن يفسروا اكتئابنا، ونحن نشعر أنه - تحت كل الأسباب التى حاولوا ذكرها لنا - توجد أسباب أخرى أكثر عمقاً لم يتمكنوا من اكتشافها، ويمكن لحزن الإنسان الذى كان يبدو، منذ أن جاءوا، جميلاً، أن يتخذ شكل الحزن

التبيل إلى أقصى مدى إلى أن يقول كائن عبقرى الكلمة الأخيرة عن الألم الذى ربما سيظهرنا بالكامل.

وانتظاراً لذلك فنحن نوجد بين أيدي قوى غريبة، ونكاد أن نشتبّه فى نواياها. وفى زمن كتّاب التراجيديا العظام فى العصر الجديد، وفى زمن "شكسبير" و"راسين" ومن بعدهما نعتقد أن جميع الشرور تأتى جميعاً من الانفعالات القوية المختلفة فى قلبنا، ولا تتأرجح الكارثة بين عالمين. إنها تجيء إلى هنا كي تذهب إلى هناك، ونحن نعلم من أين تخرج، والإنسان دائماً هو السيد. وفى زمن اليونانيين، كان الأمر أقل من ذلك بكثير، وكان القدر يسيطر على الأعالي، وكان لا يمكن الوصول إلى هذا القدر ولم يكن أحد يجرؤ على سؤاله، أما اليوم فإننا نستجوبه، وربما تكون هذه هى العلامة الكبرى التى تميز المسرح الجديد. فلم نعد نتوقف أمام آثار التعاسة، لكن أمام التعاسة نفسها، وأصبحنا نريد أن نعرف جوهر هذه التعاسة وقوانينها. وأهم ما كان يشغل - يون وعى - أوائل كتّاب التراجيديا ويكوّن الشبح الرسمى الذى يحيط - يون أن يدروا - بالحركات المجردة والعنيفة للموت الخارجى، طبيعة هذه التعاسة نفسها، التى صارت تكون بدورها النقطة المركزية لأحداث المسرحيات الدرامية، والبؤرة الضوئية الغامضة التى تدور حولها نفوس الرجال والنساء. وإذا كانت قد اتخذت خطوة ناحية الغموض فلكى يتم النظر من الأمام إلى أحداث الحياة المربعة.

وقد يكون من المفيد أن نبحت - تحت أى زاوية - تصور آخر كتّاب التراجيديا عندنا للتعاسة التى تعتبر قلب كل القصائد الدرامية. إنهم يرونها من جهة أكثر قرباً مما كان اليونانيون يرونها، ويدخلون إليها أكثر فى الظلمات الخصبية فى دائرتها الداخلية، وربما تكون هناك ألّهة مماثلة للتعاسة، لكن هؤلاء الكتّاب يجهلونّها فيما بينهم. من أين تأتى التعاسة وإلى أين تسير، ولماذا تنزل؟ لقد كان اليونانيون يطلبون هذه التعاسة بالكاد. هل تعتبر التعاسة منقوشة فينا أو تنشأ فى الوقت نفسه الذى نولد فيه نحن؟

هل هو الشقاء الذى يتقدم لملاقاتنا أم أن هناك أصواتاً تناديه من أعماق وجودنا وتكون على اتصال به؟ من المتعين أن نكون لدينا القدرة على أن نلاحظ من أعالي عالم آخر تصرفات الإنسان الذى يحدث له ألم كبير، وما هذا الإنسان الذى يعمل دون أن يعرف كيف يتصور الألم الذى سيكون محور حياته؟

والفلاحين الاسكتلنديون كلمة يمكن أن تطبق على كل ما هو موجود، وفي أساطيرهم يطلقون كلمة "فيه" Fey على حالة الإنسان الذى يقوده شعور داخلى لا يمكن مقاومته، رغم كل جهوده وكل النصائح وكل ما يستنجد به، إلى كارثة لا يمكن تجنبها. وهكذا كان "جاك الأول" أى جاك دى كاترين دوجلاس فيه fey عندما ذهب - رغم التنبؤات الخطيرة للأرض والنار والسماء - ليقضى أيام أعياد الميلاد فى قصر "بيرث" perth المظلم، حيث كان قاتله الخائن "روبرت جرايم" Robert Graeme. ومن منا لم يشعر أن القدر يسيطر عليه على هذا النحو عندما يتذكر ظروف الشقاء الفاصلة فى حياته؟ ومن المفهوم أنى لا أتحدث هنا إلا عن التعاسة النشطة الفعالة، أى التعاسة التى كان يمكن تجنبها، لأن هناك أنواعاً من التعاسة السلبية، مثل موت كائن عزيز علينا، تواجهنا ولا نستطيع لها دفعاً وليس لنا عليها أى تأثير.

تذكر يوماً من أقدار حياتك، فمن منا تم إخطاره بذلك اليوم رغم أنه يبدو لنا اليوم أن القدر كله كان يمكن أن يتغير، بواسطة خطوة واحدة لم نقم بها، أو عن طريق باب كان لا يتعين فتحه، أو يد كان لا يجب أن نرفعها، ومن منا لم يصارع بلا جدوى وبلا قوة وبلا أمل - وهو على قمة جدران الهوة - قوة لا يراها كانت تبدو بلا قوة؟

وقد كان يتعين أن تكون لفحة هذا الباب الذى فتحتة ذات مساء قاضية على سعادتي إلى الأبد، كما ينطفئ المصباح الضعيف. والآن عندما أفكر فى هذا الأمر لا أستطيع أن أقول لنفسى أننى لم أعرفه... ومع ذلك لم يكن هناك شيء مهم يدعونى للوقوف أمام عتبة الباب، فقد كان بوسعى أن أتجاوزها وأنا أهز أكتافى، ولم يكن هناك سبب إنسانى واحد يجبرنى على أن أدق على مصراع الباب... ولم يكن يوجد أى سبب إنسانى؛ لم يكن هناك شيء سوى القدر.

ولا يزال ذلك يشبه قدر "أوديب"، وإن كان يعتبر شيئاً آخر، ويمكننا القول بأن هذه القدرية التي تم ملاحظتها كانت توجد منذ البداية، وهناك قوى غامضة تحكم نفوسنا بالاتفاق، على ما يبدو، مع المخاطر. ونحن نحمل في داخلنا أعداء يعرفون ما يفعلون، وما يتعين عليهم أن يفعلوه بنا، وعندما يقودوننا إلى الحدث، ينبئوننا بذلك بكلمات نصف مفهومة، وقليلة حتى يوقفونا على الطريق؛ لكن في هذه الكلمات ما يكفي كي يجعلنا نأسف على فوات الوقت، الذي كان ينبغي فيه أن نستمع بانتباه أفضل إلى نصائحهم الساخرة غير الواضحة. إلى أين تريد هذه القوى التي ترغب في إهلاكنا أن تذهب بنا، حيث إنها لا تموت معنا ولا تعيش إلا في داخلنا؟ ما هذا الشيء الذي يحرك كل مؤامرات الكون الذي يتغذى من دمنا؟ ويدخل الإنسان الذي دقت ساعة تعاسته في دوامة لا يمكن ملاحظتها؛ ومنذ سنوات تخطط هذه القوى الأحداث المتعددة التي ينبغي أن تؤدي إلى الدقيقة اللازمة وإلى النقطة الحاسمة التي تنتظر فيها الدموع. تذكر كل جهودك وكل حدسك. تذكر النجذات غير المفيدة. تذكر أيضاً اللحظات الطيبة الحانية، التي حاولت أن تسد أمامك الطريق وأنت تحاول صدّها، كما تصد المتسولين الذين يضايقونك. كانت هذه اللحظات بمثابة شقيقات خجولات كن يردن إنقاذك، وابتعدت دون أن تقول شيئاً؛ لأن هذه اللحظات كانت من الضعف والقصر بحيث تستطيع الصمود أمام أشياء تقرر حدوثها من قبل. والله يعلم أين.

وعقب حدوث التعاسة نشعر بإحساس غريب بأننا كنا نستجيب لقانون أزلّي. ولست أعلم ما المواساة الغامضة، التي تكافئنا على استجابتنا في أثناء أعظم الألم؟ إننا لن نكون أبداً سوى أبناء حميمين لليوم التالي لوقوع كارثة لا يمكن إصلاحها. ويبدو عندئذ أننا قد استعدنا أنفسنا واسترجعنا جزءاً ضرورياً لا نعرفه من وجودنا، يحدث شيء من الهدوء الفريد. ومنذ أيام - ودون أن نعرف - كانت القوى المتمردة في ذاتنا تصارع بضراوة على حافة الهاوية، في الوقت الذي كان باستطاعتنا فيه أن نبتسم في الوجوه وأمام الأزهار. والآن ونحن في العمق فإن كل شيء يتنفس بحرية.

وهكذا فإن هذه القوى تقاتل دون هوادة فى كل نفس من نفوسنا، ونحن نرى أحياناً شبح هذه المعارك التى لا يمكن لإرادتنا أن تتدخل فيها، دون أن نلتفت إليها لأننا لا نفتح عيوننا إلا للأشياء عديمة الأهمية. وإذا كنت فى حضرة أصدقاء، فقد يحدث وسط الكلمات والقهقهات من الضحك أمر ليس من شأن هذا العالم العادى نراه على وجه أحدهم، ويسود الصمت فجأة: وسينظر الجميع - دون أن يدروا - إلى الفضاء للحظة بعيون أنفسهم. وبعد ذلك تعود الابتسامات والكلمات التى كانت قد اختفت مثل الضفادع المذعورة فى بحيرة كبيرة، وهى أكثر عنفاً إلى الظهور من جديد، لكن الشيء الذى لا نراه، هنا كما فى أى مكان آخر، يدرك مداره، وشيء ما يدرك أن الصراع قد انتهى، وأن نجما سيرتفع أو سيسقط، وأن قدرا قد تحدد منذ قليل.

وربما يكون هذا القدر قد تحدد؛ ومن يعلم إذا لم يكن هذا الصراع مجرد خيال! وإذا كنت أدفع باب المنزل اليوم، حيث يجب أن أواجه أول ابتسامات الحزن الذى لم يعد ينتهى، فإننى أقوم بمثل هذه الأشياء منذ وقت أطول مما نعتقده.

ما جدوى أن يزرع المرء ذاتاً ليس لدينا عليها أى نفوذ؟ إنه نجمنا الذى ينبغى أن نلاحظه، فهو إما سيئ أو حسن، شاحب أو قوى لا يمكن لكل قوى البحر أن تغير منه شيئاً. ويمكن للبعض الذين يثقون فيه أن يلعبوا معه، كما يلعبون بكرة من الزجاج، فهم يدفعونها ويجازفون بها حيث يريدون، لكن هذه الكرة تعود إلى أيديهم بسلام، فهم يعلمون جيداً أنها لا يمكن أن تنكسر، لكن هناك نجومًا كثيرة أخرى لا يمكن أن ترفع نظرتها إليهم دون أن تنفصل عن السماء وتسقط كالتراب بين أرجلهم.

ومن الخطورة أن نفكر فى هذا الأمر، لأن ذلك يعتبر علامة على أن النجم على وشك أن ينطفىء.

ونحن نوجد هنا فى هاويات الليل وننتظر ما يمكن أن يحدث فيه، وليس الأمر هنا مسألة إرادة، فنحن على بعد ألف فرسخ من النجم فى منطقة تكون فيها الإرادة نفسها أكبر ثمرة ناضجة للقدر، ولا ينبغى أن نشكى من ذلك؛ لأننا نعرف شيئاً ما من قبل واكتشفنا بعض عادات الصدفة. إننا ننتظر مثل صياد العصافير، الذى يراقب

عادات العسافير المهاجرة. وعندما يحدث حادث فى الأفق، فإننا لا نجهل أن هذا الحادث لن يكون منفرداً وأن غيره من الأحداث ستأتى زرافات إلى المكان نفسه. ولقد تعلمنا بغموض، أن بعض الأفكار وبعض النفوس تجتذب هذه الأحداث فيما يبدو، وأنه توجد كائنات تغير مسارها، تماماً كما يوجد غيرها وتستطيع أن تدفع بهذه الأحداث إلى جميع أنحاء العالم.

ونعلم بصفة خاصة أن بعض الأفكار خطيرة جداً، وأنه يكفى أن نعتقد للحظة أننا فى مأمن حتى تأتينا الصاعقة، وأن السعادة تشكل فراغاً لا تتوانى الدموع عن أن تنهمر فيه. وفى نهاية بعض الوقت نكتشف أيضاً ما تفضله هذه النجوم. ونلاحظ على الفور أننا نخطو بعض الخطوات فى طريق الحياة بجانب أحد أشقائنا. ولن تكون عادات الصدفة متماثلة بينما تحدث، بانتظام، مع هذا الآخر أحداث ذات طبيعة لا تتغير فى مواجهة وجودنا. ونحن نشعر أن هناك كائنات تحتمى بالمجهول وأخرى تدخل فى مجال الخطر، وهناك من ينامون، وهناك من يوقظون المستقبل. ونحن نشتهيه أيضاً فى أن الأشياء، تولد ضعيفة فى البداية ثم تستمد منا قوتها، وأنه فى كل مخاطرة توجد دقيقة قصيرة تنبئنا فيها غريزتنا بأننا ما زلنا سادة القدر. وأخيراً يتجرأ البعض على أن يؤكدوا لنا أنه يمكننا أن نتعلم كيف نكون سعداء، وكلما كنا أفضل، سنقابل أناساً أفضل، وأن الكائن الطيب يجتذب بشدة أحداثاً طيبة مثله، وأنه مع النفس الجميلة تتحول أكثر الصدقات حزناً إلى جمال.

ومن ذا الذى لا يشعر بأن الطيبة تشير إلى الطيبة، وأن الشئ نفسه يحدث مع من نخلص لهم، ومع من نخونهم؟ وإذا كان الألم نفسه يدق على بابين متلاصقين فهل سيتفاعل هذا الألم بالكيفية نفسها مع دار العدالة ودار الظلم، وإذا كنت طاهراً ألا تكون أوجه تعاستك طاهرة؟ ألا يسيطر المرء على المستقبل عندما يعرف كيف يحول الماضى إلى بضع ابتسامات حزينة نوعاً ما؟ ألا يبدو أننا نستطيع أن نوخر حدوث شئ ما حتى ما لا يمكن تحاشيه؟ ألا تنام الأخطار ثم تحدث حركة مفاجئة جداً تجعلها تستيقظ فى الأفق، وهل كان سيحدث هذا الشقاء اليوم إذا لم تكن هذه الأفكار المجتمعة قد أحدثت

ضجة كبيرة فى نفسك هذا الصباح؟ هل ذلك هو كل ما استطاعت حكمتنا أن تجده فى الظلمات؟ وإذن فمن يجرؤ على أن يقول إنه توجد فى هذه المناطق حقائق حازمة؟ فى الانتظار يجب أن نعرف كيف نبترسم وكيف نبكى فى صمت على نوع من الطيبة بسيط جداً.

وفوق كل هذه الأمور، يرتفع رويداً رويداً الوجه غير الكامل للقدر اليوم، وقد سبق أن انحسر جزء بسيط من الغطاء الذى كان يغطيه، وتعرفنا من جهة فى الجزء المكشوف - دون بعض القلق - على قوة أولئك الذين لم يعيشوا بعد، وعلى قدرة الأموات من جهة أخرى. وفى الحقيقة لا يوجد سوى ابتعاد جديد عن المجهول. لقد قمنا بتكبير يد القدر الباردة، وها نحن نجد أن أيدي أبنائنا، الذين لم يولدوا بعد تنضم فى ظلامها إلى أيدي أجدادنا. لقد كان هناك عمل اعتقدنا أنه ملجأ لنا من جميع الحريات، وظل الحب هو أكبر ملاذ لكل هؤلاء الذين كانوا يشعرون بشدة بقيود الحياة وفى هذا على الأقل كنا نقول لبعضنا، فى عزلة هذا الزمن السرى، إن أحداً لن يدخل معنا، لكن هنا يمكننا أن نتنفس للحظة، هنا تتسيد نفسنا أخيراً؛ لأنها اختارت بحرية فى مركز الحرية نفسها، لكن الآن وصل بنا الحال إلى أن نقول إننا لا نحب لحسابنا. لقد جاء من يقول لنا إنه - فى معبد الحب نفسه - لم نخضع إلا لأوامر ثابتة لمجموعة غير مرئية. قالوا لنا إننا نكون على بعد ألف قرن من أنفسنا عندما نختر حبيبنا، وإن أول قبلة للخطيب ليست سوى خاتم تفرضه آلاف الأيدي، التى تطلب المجيء إلى الوجود، على فم الأم التى ترغب فيها. ومن جهة أخرى، فإننا نعرف حالياً أن عاداتنا تجد نفسها حول منازلنا وليس حول كنائسنا. من الآن فصاعداً، ولا توجد حركة أو فكرة أو خطيئة أو دمة أو ذرة من وعى مكتسب يضيع فى أعماق الأرض؛ وأن أتفه أعمال أجدادنا ترتفع، ليس فى قبورهم حيث لم يعودوا يتحركون، لكن فى أعماقنا حيث يعيشون دائماً.

وهكذا فإن الماضى والحاضر هما اللذان يوجهاتنا، أما الحاضر الذى يكون وجودنا، فإنه يسقط فى أعماق البحر كما تسقط جزيرة صغيرة ينهشها بلا هوادة محيطان ثائران. وتختلط فى نفسنا الموروث والإرادة والقدر، لكن رغم كل شىء، وفوق كل شىء،

فإنّ النجم الصامت هو الذى يحكم، وهناك ملصقات مؤقتة توضع على الفازات الوحشية التى تحتوى على ما لا يمكن رؤيته. إن الكلمات لا تقول شيئاً تقريباً مما ينبغى قوله. وليس الموروث أو القدر نفسه إلا شعاعاً ضالاً من هذا النجم فى الليل الغامض. ولا يزال كل واحد يملك الحق فى أن يكون أكثر غموضاً. وقد قال واحد من أكبر حكماء هذا العصر: «إننا نسمى قدراً كل ما يحدونا»، ولذلك فإن علينا أن نعترف بجميل كل الذين يتحسسون بارتعاش بجانب هذه الحدود. وأضاف هذا الحكيم قائلاً: «إذا كنا عنيفين وبرابرة؛ فإن القدر يتخذ شكلاً عنيفاً وبربرياً، وعندما نُهذب من سلوكنا فإن صدماتنا ستكون أيضاً مهذبة، وإذا ارتفعنا إلى ثقافة روحية فإن المعادة ستتخذ شكلاً روحانياً»، وربما يكون من الحقيقى أن نفسنا عندما ترتفع، تُظهر القدر، رغم أنه من الحقيقى أيضاً أن تقول إن الأحران نفسها، التى تهددنا تهدد أيضاً الهمجيين المتوحشين، لكن لدينا أحراناً أخرى لا يراها هؤلاء المتوحشون، كما أن العقل لا يسمو إلا لى يكتشف أحراناً فى كل الآفاق، «لأن ما نسميه قدراً هو كل ما يحدونا». لنحاول أن نقول إن القدر ليس شديد الضيق.

ومن الجميل أن نكثر من كمية أحرانه، بما أن ذلك يعنى توسيع وعيه الذى يُعتبر المكان الوحيد الذى نشعر أننا نعيش فيه، وذلك أيضاً هو الوسيلة الوحيدة التى بها يملأ واجبه الأعلى نحو العوالم الأخرى، نظراً لأنه يتعين علينا وحدنا تقريباً أن نزيد من وعينا بالأرض.

الفصل الحادى عشر

"الطيبة الخفية"

قال لى هذا الحكيم الذى قابلته ذات مساء على شاطئ المحيط، وكنت أسمعه بصعوبة، إن الطيبة شىء لا ندركه، ولا يظهر أن أحداً يعتمد عليها. ومع ذلك، فإننى أعتقد أنها إحدى القوى التى تحمى وجود الكائنات. والالهة التى ولدنا منها تبدو فىنا بألف طريقة مختلفة، لكن هذه الطيبة الخفية التى لم نلاحظها، والتى لم يتحدث عنها أحد بشكل مباشر بما فيه الكفاية، قد تعتبر علامة على أنقى حياة أبدية. ولا يعلم أحد من أين تجىء. إن هذه الطيبة تبتسم هنا ببساطة على عتبة نفوسنا؛ وسيقوم هؤلاء - الذين تبتسم الطيبة فى أعماق أعماقهم مراراً وتكراراً - بالعمل على معاناتنا ليلاً ونهاراً كلما أرادوا دون أن يكون بوسعنا إلا أن نحبه بعد ذلك.

وليست الطيبة من هذا العالم، ومع ذلك فهى تختلط بمعظم تصرفاتنا، بل إنها لا تكلف نفسها مشقة أن تظهر فى شكل نظرة أو دمة، وتختفى - على العكس - لأسباب لا نستطيع التكهّن بها. وقد يُقال إنها تخشى استخدام قوتها، وهى تعرف أن حركاتها غير الإرادية ستنشأ عنها، وحولها أمور خالدة. لماذا إذن نخشى أن نستنفذ السماء التى توجد فىنا؟ إننا لا نجرؤ على الحركة وفقاً لما يريده الإله الذى يحركنا. إننا نخشى ما لا يمكن تفسيره بحركة أو بكلمة ونحن نعلق الأعين عن كل ما نفعله رغماً عنا فى الإمبراطورية التى تكون فيها التفسيرات غير ضرورية، ومن أين يأتى إذن هذا الوهن لكل ما هو ربانى عند الناس؟ وقد يُقال حقيقة إنه كلما تقترب حركة النفس من الربانية، تزيد عنايتنا بإخفائها عن أنظار أشقائنا، ألا يكون الإنسان شيئاً آخر غير إله

ربما يشعر بالخوف؟ أم أنه من المحرم علينا أن نخون ونكشف هذه القوى العليا؟ إن كل ما لا ينتسب إلى هذا العالم المرئى بشكل كبير جداً، يشبه خضوع البنت المعاقة التى لا تستدعيها أمها عندما يدخل الغرباء إلى المنزل. ولهذا فإن طبيبتنا الخفية لم تتجاوز - قط حتى الآن - الأبواب الصافية لنفسنا، وهى تعيش فينا كالسجين الذى يحرم عليه أن يتجاوز القضبان، ومن ناحية أخرى، لا يجب على الطيبة أن تقترب منها، إذ يكفي أنها موجودة هناك، وهى تعرف كيف تختبئ بمجرد أن ترفع رأسها، وبمجرد أن تتخلص من قضيب من قيودها، وبمجرد أن تفتح يدها يضاء السجن، وتفتح المنافذ تحت ضغط الأضواء الداخلية، تنشأ فجأة هوة مملوءة بملائكة متحركين بين الكلمات وبين الكائنات. وخشعت الأصوات وتتحول الأنظار للحظة، وتتعانق نفسان وهما تبكيان على العتبة.

وليس ذلك شيئاً يأتى من الأرض، وأى وصف لن يؤدى إلى نتيجة، ويتعين أن يكون لدى من يريدون أن يفهمونى النقطة الحساسة نفسها فى نواتهم. وإذا كنت لم تشعر قط فى الحياة بقوة الطيبة الخفية، فلا تذهب إلى أبعد من ذلك؛ فلا فائدة، لكن هل يوجد حقيقة من لم يشعروا بهذه القوة؟ وألم يكن لدى أسوأ الناس فينا طيبة خفية قط؟ لا أعرف، فهناك كثير من الكائنات فى هذا العالم لا يفكرون فى شىء آخر غير إحباط كل ما هو ربانى فى أنفسهم. ومع ذلك تكفى لحظة واحدة لالتقاط الأنفاس، كى يظهر ما هو ربانى، كما أن أكبر الأشرار لا يكونون دائماً على حذر، ولهذا السبب يوجد - بلا شك - كثير من الأشرار بهم طيبة لا يراها الآخرون، فى الوقت الذى يوجد فيه كثير من الحكماء وكثير من القديسين بلا طيبة خفية.

ويضيف هذا الحكيم قائلاً: لقد سببت المعاناة لآخرين أكثر من مرة، كما يسببها أى كائن حوله، ولقد كنت السبب فى هذه المعاناة؛ لأننا فى عالم تتماسك أطرافه بخيوط لا نراها، وفى عالم لا يوجد فيه أحد وحيداً، كما أن أرق حركة من الطيبة أو من الحب تجرح - فى الغالب - كثيراً من الأمور البريئة بجانبنا. لقد سببت المعاناة أيضاً؛ لأن أفضل الناس وأرقهم يحتاجون إلى البحث عن جزء لا أعرفه من أنفسهم فى ألم الآخرين. وهناك، حقيقة، حبوب لا تنبت فى نفسنا إلا تحت وابل من الدموع التى تتوزع

فى كل الأنحاء بسببنا، ومع ذلك، فإن هذه الحبوب تنتج أزهاراً جميلة، وثماراً طيبة. ماذا تريدون؟ إنه قانون لم نصنعه نحن، ولست أعلم ما إذا كنت أتعجراً على أن أحب إنساناً لم يجعل أحداً يبكى. وفى معظم الأحيان، نجد أن من يحبون حباً كبيراً يتسببون فى معاناة أكبر، لأننا لا نعلم ماهية هذه القسوة الرقيقة الخجولة، التى تعتبر الشقيقة القلقة للحب. ويبحث الحب فى كل مكان عن براهين له؛ وألا يجب أن نميل للعثور على هذه البراهين أولاً فى دموع المحبوبة؟

بل إنه لا يمكن للموت أن يكون كافياً لطمئنة العاشق إذا لم تكن لديه الجرأة على الاستماع إلى مقتضيات الحب؛ لأن لحظة الموت تبدو قصيرة جداً بالنسبة لقسوة الحب الذاتية، وبعيداً عن الموت، لا يزال يوجد مكان لبحر من الشكوك، والذين يموتون معاً، ربما لا يموتون بغير قلق، ويتعين هنا وجود دموع طويلة تنذرف ببطء، والألم هو أول غذاء للحب، وكل حب لم يتم تغذيته بقليل من الألم الصافى يموت كما يموت طفل حديث الولادة يراود تغذيته، كما يغذى إنسان كبير. هل تودون أن تحبوا الكيفية نفسها التى تحقق الابتسام دائماً، أو التى تجعلكم تبكون أحياناً؟

للأسف، يجب أن يبكى الحب فى أحيان كثيرة. وفى اللحظة نفسها، التى يتزايد فيها البكاء، يتزايد فيها الطرق على قيود الحب التى تنغمس فى الماء من أجل الحياة.

ويضيف الحكيم قائلاً: لقد تسببت فى المعاناة على هذا النحو؛ لأننى كنت أحب. وتسببت فى المعاناة أيضاً؛ لأننى لم أعد أحب، لكن ما الفرق بين هذين النوعين من الآلام! هنا يبدو أن دموع الحب التى نشعر بها، تعلم فعلاً، وفى قرارة ذاتها، أنها تروى فى نفسنا المتحدتين شيئاً لا يمكن وصفه، وهنا تعرف هذه الدموع المسكينة من جهتها، أنها تسقط وحدها على صحراء، لكن فى هذه اللحظات التى تصفى فيها النفس حقيقة أو بالأحرى كل نفس، تعرّفت على قدرة الطيبة الخفية، التى تعطى لدموع الحب التعسة - هذا الحب الذى يموت - الإحياءات الربانية للحب الذى يولد. ألم تتعرض قط لإحدى تلك الأمسيات الحزينة، حيث لا تستطيع القبلات المحبطة أن تبتسم،

وحيث تشعر النفس أخيراً، بأنه تم خداعها؟ لم تعد الكلمات تدوى إلا بمعاناة كبيرة في هذا الهواء البارد للافتراق النهائى. إنك ستبتعد إلى الأبد، وستمتد الأيدي - التى لا روح لها - نحو وداع بلا عودة عندما تقوم النفس فجأة بحركة حول نفسها لا يمكن إدراكها، وتفوق النفس المجاورة لها فى اللحظة نفسها فوق أعالي الكائن الإنسانى، ويتولد شيء أكثر سمواً من حب العشاق المتعبين، وتبتعد الأجساد، لكن النفوس لن تنسى - بعد الآن - أنها كانت قد نظرت إلى بعضها بعضاً لبرهة من فوق جبال لم يسبق أن رأتها على الإطلاق، وأنها - فى غمضة عين - كانت لديها طيبة لم تكن تعرفها بعد.

ما إذن هذه الحركة الغامضة التى لم أتحدث عنها إلا بمناسبة الحب، والتى يمكن أن تحدث فى أبسط ظروف الحياة؟ هل أنا لا أعرف ما التضحية أو ما العناق الداخلى، أو ما الرغبة العميقة جداً التى تشعر بها نفس نحو أخرى، أو ما الإحساس الرقيق دائماً الذى ينشأ عن وجود حياة لا نراها تماثل حياتنا؟ هل يوجد كل ما هو رائع وحزين فى قضية العيش وحدها؛ وهل مظهر الحياة واحد وغير مرئى، ومن هو ذلك الذى يسيطر على كل وجودنا فى هذه اللحظات؟ إننى أجهله، لكن حينئذ يحس المرء حقيقة بأن هناك قوة مجهولة، وبأننا كنوز خاصة بإله ما يحب الجميع، وأنه لا تخفى عليه أية حركة، وأنتا نوجد - فى نهاية المطاف - فى منطقة أشياء لا تكشف عن نفسها.

ومن الحقيقى، أنه من الميلاد إلى الممات لا نخرج مطلقاً من هذه المنطقة النهائية، لكننا نتجول فى الإله وكأننا أناس مساكين منومين، أو مثل العميان الذين يبحثون دون جدوى عن المعبد الذى يوجدون داخله. إتنا هناك، فى الحياة، إنسان ضد إنسان، نفس ضد نفس، وتمضى الأيام والليالى تحت السلاح، ونحن لا نرى أنفسنا، ولا يلمس بعضنا بعضاً، ولا نرى أبداً سوى دروع وخوذات ولا نلمس شيئاً غير الحديد والبرونز، لكن إذا حدث ظرف طارئ قادم من بساطة السماء وأسقط الأسلحة لبرهة، ألن توجد عندئذ دموع تحت الخوذة، وابتسامات طفل خلف الدرع، وألا نرى حقيقة أخرى؟

وما زال الحكيم يفكر، ثم تنهد بحزن أكبر قائلاً: لقد كنت أعتقد أنني قلت لكم ما سأقوله الآن، لقد كانت هناك امرأة جعلتها تتألم رغماً عني، لكنها باحت لى ذات مساء بالقوة الحاكمة لهذه الطيبة الخفية، وأكثر الناس انتباهاً ينشرون الألم حولهم دون أن يدروا بذلك، ولكي يكون المرء طيباً، يجب أن يكون قد تألم لكن يتعين أن يكون قد جعل الآخرين يتألمون حتى يصير أفضل. وقد شعرت بذلك هذا المساء، وكنت أشعر أنني وصلت وحدى إلى المنطقة الحزينة للقبيلات، حيث يبدو أننا نزور بالفعل أكواخ الفقراء، بينما كانت المحبوبة التي جاءت متأخرة لا تزال تبتسم في ردهات القصور في الأيام الأولى، والحب في نظر الناس يموت بيننا مثل الطفل الذي انتابه داء لا نعرف من أين أتى، والذي لا يشفق عليه أحد. ولم نقل شيئاً لأنفسنا، بل إننى لا أستطيع أن أتذكر فيما كنت أفكر في هذه اللحظة الخطيرة جداً؛ في أشياء تافهة بالتأكيد. وقد حدث كل شيء في ضوء أكثر شفافية ألف مرة وأكثر علواً، كما لو كانت كل قوى الشفقة والحب التي أسيطر عليها في أفكاري وقلبي قد تدخلت عند مقابلتي لآخر وجه على ضوء مصباح مرتعش في ركن من رصيف قفر، وتركنا بعضنا دون أن نقول شيئاً، لكن فهمنا فكرنا الذي لا يمكن التعبير عنه في الوقت نفسه. ونحن نعلم الآن أن حباً آخر قد نشأ ليس في حاجة إلى كلام ولا اهتمامات صغيرة ولا للابتسامات مثل الحب العادي. ولم نر بعضنا بعد ذلك. وقد لا نتراءى قبل قرون «ومما لا شك فيه أنه يتعين أن ننسى أشياء كثيرة، ونتعلم أشياء أخرى من خلال العوالم التي سنمر عليها»، قبل أن نوجد في حركة النفس نفسها التي حدثت في ذلك المساء: ولدينا الوقت للانتظار.

وأيضاً، ومنذ هذا اليوم قمت بالترحيب، في كل مكان، وفي أحلك الأوقات، بالحضور الطيب لهذه القوة العجيبة، ويكفى أن نراها بوضوح مرة واحدة حتى لا يمكننا أن نتحاشى وجهها، وستراها وهي تبتسم غالباً في التراجعات الأخيرة للكراسية، وحتى في أعماق أقسى الدموع. ومع ذلك، فهي لا تظهر لعيون جسدنا، وعندما تبدو - بسبب عامل خارجي - تتغير طبيعتها، ولا نكون عندئذ في الحقيقة التي تفهمها النفس، لكن نكون في نوع من الكذب الذي يعرفه البشر، وليس لدى الطيبة والحب اللذين لا يتجاهلان بعضهما أى تأثير على النفوس؛ لأنهما خرجا من الممالك التي

يعيشان فيها؛ وما داما لا يريان فبإمكانهما! ترقيق القدر نفسه. ولقد عرفت رجلاً كان يقوم بجميع أعمال الطيبة والرحمة دون أن يصل إلى نفس واحدة؛ وعرفت آخرين كان يبدو أنهم يعيشون في ظل الكذب والظلم دون أن يزعجوا هذه النفوس نفسها ودون أن تتولد منهم - للحظة واحدة - فكرة أنهم ليسوا طيبين. وهناك ما هو أكثر من ذلك، فهؤلاء الذين لا يعرفونك والذين تنقل إليهم أعمالك في مجال الطيبة والحب بكل بساطة، سيتشككون في شيء ما إذا لم تكن طيباً على غرار الطيبة الخفية، ولن يتيسر الوصول أبداً إلى أعماق كيانه، كما لو كان يوجد في جهة ما مكان يوزن فيه كل شيء في حضور الأرواح، أو كما لو كان يوجد هناك في الجانب الآخر من الليل، خزان من اليقين يشرب منه القطيع الصامت للنفوس كل صباح.

وربما لا نعرف حتى الآن معنى كلمة «يحب»؛ إذ يحدث في حياتنا أن نحب دون أن نعرف. وإذا كان هذا هو الحب فلن يكون الأمر مجرد شفقة أو استعداد للتضحية الداخلية بالنفس أو الرغبة في المساعدة وإحداث السعادة؛ لكن الحب أكثر عمقاً ألف مرة من أحلى الكلمات الإنسانية، وأكثرها رشاقة وقوة ولا يمكن لكل ذلك أن يصل إلى الحب، وأحياناً قد يقال إنه ذكرى خاطفة وإن كان يتغلغل بشدة إلى الوحدة البدائية الكبرى، ويوجد في هذا الحب قوة لا يمكن لأي شيء أن يقاومها. ومن منّا، إذا تساعل - وسط أنوار غير طبيعية لا يمكن النظر إليها - لا يجد في نفسه مرة أخرى ذكرى أعمال غريبة قامت بها قوى هذا الحب؟ من منّا لم يشعر فجأة وهو إلى جانب كائن غير مكرث، بأن شيئاً ما قد نشأ لا يعرف أي شخص كيف يسميه. هل كانت هي النفس أو الحياة التي تنور على نفسها مثل النائم الذي يستيقظ؟ أنا لا أعرف، ولا أنتم تعرفون، ولا أحد يتحدث عن ذلك رغم أنكم لا تفترون كما لو كان لم يحدث شيء.

والحب بهذا الشكل، هو حب وفقاً للنفس؛ ولا توجد نفس لا تتجاوب مع هذا الحب؛ لأن النفس الإنسانية تعتبر مثل من يدعى وهو جائع منذ قرون، ولا ينبغي أبداً أن يدعى مرتين إلى وليمة عرس.

وتتسكع كل نفوس إخواننا باستمرار حولنا، لتبحث عن قُبلة ولا تنتظر منا إلا إشارة، لكن كم من الموجودين تجرءوا على إعطاء مثل هذه الإشارة في حياتهم! وسبب الألم الذى يحيط بوجودنا هو أننا كنا نعيش بمعزل عن أنفسنا، وأننا كنا نخشى أقل حركاتنا. ولو كنا نسمح لها بأن تبتسم بوضوح فى ظل صمتها وضيائها لكنا عشنا حياة أبدية. ويكفى أن نتأمل ولو لبرهة ما تستطيع هذه النفس أن تفعله فى الدقائق النادرة التى لا نفكر فيها وفى تقييدها بوصفها مجنونة، مثل ما نفعل فى الحب، حيث نتركها أحياناً لتتقرب من أسوار الحياة الخارجية. ووفقاً للحقيقة الأولية، ألا يجب أن يشعر كل الموجودين أمامنا فى الحياة، بمثل ما تشعر به العاشقة أمام المعشوق؟

وتسبغ هذه الطيبة الخفية الربانية النبل بصفة نهائية على كل ما تلمسه دون أن تدري بذلك، رغم أنتى لا أتحدث عن هذه الطيبة إلا بوصفها علامة أكيدة وقريبة من نشاط أنفسنا الذى لا يتوقف، وإلى هؤلاء الذين يشكون من أى موجود، يجب عليهم أن ينزلوا إلى أعماقهم ويتساءلوا عما إذا كانوا، فى أى وقت طيبين إزاء هذا الكائن.

وفيما يتعلق بى، لم أقابل قط أى شخص أشعر إزاءه بتأثر طيبتى المخيفة دون أن يصبح - فى اللحظة نفسها - أفضل منى. كونوا طيبين فى أعماقكم وسترون أن هؤلاء الذين يحيطون بكم سيصيرون طيبين حتى نفس الأعماق. وليس ثمة ما لا يستجيب بقوة إلى الصرخة السرية للطيبة أكثر من صرخة سرية لطيبة مجاورة. وما دمنا طيبين فعلاً فى الخفاء؛ فإن هؤلاء الذين يقتربون منكم سيفعلون دون أن يدروا أشياء لا يمكنهم أن يفعلوها إزاء أى إنسان آخر. وهنا توجد قوة ليس لها مسمى تتمثل فى منافسة روحية لا تقاوم. وقد يُقال إنه هنا بالضبط توجد أكبر نقطة حساسة فى نفوسنا، ذلك لأنه يوجد من بين هذه النفوس نفوس يبدو أنها نسيت أنها موجودة، وبالتالي تخلت عن كل ما يسمو بالكائن، لكن عندما تحتك بهذا المكان تنهض كلها فى المجالات الربانية للطيبة السرية، وهى أبسط ما فى النفس، ولا يمكن لها أن تتحمل الهزيمة.

ومع ذلك فمن الممكن ألا يتغير شيء في الحياة التي نراها، لكن هل هذا وحده هو ما يعنيننا، وهل لا نوجد نحن حقيقة إلا من خلال الأفعال التي نسيطر عليها، ونقبض عليها بأيدينا مثل حصوات الشارع الكبير.

ولو سأل كل منكم نفسه - كما يُقال - وكما ينبغي أن تتساءلوا كل مساء: «ما الشيء الخالد الذي فعلته اليوم؟». هل نكون دائماً بجانب الأشياء كي نقوم بالحساب والفكر والقياس دون أخطاء؟ أم يحب أن نبحث عن كل شيء أولاً؟ من المحتمل أن تذرفوا دموعاً غير معتادة تملأون بها قلباً بأمر مؤكدة غير مسموعة، وأن تجعلوا نفساً خالدة دون أن يلحظ ذلك أحد، بل ودون أن تلاحظوا أنتم ذلك. ومن المحتمل ألا يتغير شيء، ومن الممكن أن ينهار كل شيء عند المحنة، وأن تتحنى الطيبة أمام أقل خوف. وليس ذلك مهماً. فقد حدث شيء رباني؛ ويتعين أن يبتسم إلينا في مكان ما. أليس الهدف الأسمى للحياة أن تجعل ما لا يمكن تفسيره فينا يولد من جديد. وهل نعرف ما نضيفه إلى نواتنا عندما نفوق قليلاً من حالة عدم الفهم التي تنام في كل الأركان؟ إنكم أيقظتم هذا الحب الذي لن ينام بعد ذلك. ووسط أنواع العذاب، لن تحقد عليكم النفس التي نظرت إليها نفسكم، والتي ذرفت معكم الدموع المقدسة من الفرح المهيّب، بل لن تكون في حاجة إلى أن تسامحكم، لأنها متأكدة جداً، بشكل لا أعرف كنهه، من أن شيئاً لن يكون بوسعه مستقبلاً، أن يسمح أو يقلل من ابتسامتها الداخلية، ومن أن شيئاً لا يمكنه أن يفرق بين نفسين كانتا للحظة، «طيبتين معاً».

الفصل الثانى عشر

"الحياة العميقة"

من الأفضل أن نُذكر بأن أكثر الناس بساطة «بوسعه أن يقوم بإبداع شخصية معنوية كبيرة مكونة من أجزاء متساوية، منه ومن المثالية، وذلك طبقاً لنموذج ربانى لا يختاره أحد يعيش مع الحقيقة كاملة. إنه بالتأكيد هو هذا الإنسان البسيط».

ويتعين على كل إنسان أن يجد لنفسه إمكانية خاصة للحياة العليا فى أبسط الأمور وفى الحقيقة اليومية التى لا يمكن تجنبها، ولا يوجد هدف أكثر نبلاً لحياتنا؛ وما يميز البعض عن البعض الآخر يتمثل فى العلاقات بيننا وبين اللانهائية، ولم يعد البطل أكثر عظمة من هذا البائس الذى يسير إلى جانبه إلا فى لحظة ما من وجوده، ذلك لأن لديه ضميراً أكثر حيوية من أى من هذه العلاقات، وإذا كان من الحقيقى أن الإبداع ليس وقفاً على الإنسان وأن هناك كائنات عليا لا نراها تحيط بنا، فإن هذه الكائنات لا تتفوق علينا إلا لأن لها علاقات مع اللانهائية لا يمكن أن نتشكك فيها.

ويوجد فى حياة كل إنسان يوم انفتحت فيه السماء من تلقاء نفسها، ومن هذه اللحظة تبدأ دائماً الشخصية الروحية الحقيقية للكائن.

وفى تلك اللحظة أيضاً يتكون بالتأكيد ذلك الوجه الخالد الذى نظهر به - دون أن ندري - أمام الملائكة والنفوس، لكن بالنسبة لغالبية البشر، لا تنفتح السماء على هذا النحو إلا بالصدفة، ولم يختَر البشر الوجه الذى تعرفهم به الملائكة فى اللانهائية، كما أنهم لا يعرفون كيف يجعلون ملامح وجوههم نقية ونبيلة؛ لأنهم لم يولدوا إلا من فرح أو من حزن أو من فزع أو من فكرة عارضة.

ونحن نولد - حقيقة - فى اليوم الذى نشعر فيه بعمق ولأول مرة أنه يوجد شىء مهم غير منتظر فى الحياة. ويلاحظ البعض، فجأة، أنهم ليسوا وحدهم تحت السماء. ويلاحظ البعض الآخر - فجأة أيضاً - وهم يقبلون بعضهم أو يذرفون دمعة أن «مصدر كل شىء حسن ومقدس منذ أن بدأ الكون يختبئ خلف ليل ممتلئ بالنجوم البعيدة جداً». وقد رأى البعض الثالث يداً ربانية تمتد بين فرحهم وألمهم، وفهم آخرون أن الحق مع الموتى، وشعر واحد بالشفقة وآخر بالإعجاب، وثالث بالخوف. وفى كثير من الأحيان يتعين عمل شىء ما؛ تكفى كلمة أو حركة، أو القيام بشىء صغير لا يعتبر حتى مجرد فكرة. ويقول أحد أبطال شكسبير بشأن عمل أعجب به: «كنت أحبك قبل ذلك مثل أخى، لكنى حالياً أحترمك مثل نفسى». ومن المحتمل أن يأتى فى يوم ما كائن ما إلى العالم.

ويمكننا - بهذا الشكل - أن نولد أكثر من مرة، وعند كل ميلاد نقرب رويداً رويداً من إلها، لكننا، جميعاً تقريباً، نقتصر على انتظار حدث له نور لا يمكن مقاوته يخرق ظلامنا بقوة وينير لنا على الرغم منا، ونحن ننتظر أية صدفة سعيدة تنفتح فيها - صدفة أيضاً - عينا نفسنا فى اللحظة التى يحدث فيها شىء غريب. ومع ذلك ففى كل ما يحدث يوجد نور، ولم يعتبر أعظم الرجال عظماء، إلا لأنهم تعودوا على أن يفتحوا عيونهم لكل ضياء. وهل من الضرورى إذن أن تحتضر أمك بين ذراعيك، وأن يموت أطفالك غرقى، وأن تمر أنت نفسك بجانب الموت حتى تعلم أخيراً أنك فى عالم غير مفهوم توجد فيه أنت دائماً، ويظل الله الذى لا تراه موجوداً وحده إلى الأبد مع مخلوقاته؟ هل يلزم أن تموت خطيبتك فى حريق أو تختفى تحت بصرك فى أعماق المحيط حتى ترى - اللحظة - أن الحدود النهائية لمملكة الحب تتجاوز النيرات، التى لا تراها فى "ميرا" "Mira" تقريباً أو "ألتير" "Altair" أو فى شعر "بيرنىي" "Berenice"؟ ولو كنت قد فتحت عينيك لكان بوسعك أن ترى فى قبلة واحدة ما تراه اليوم فى كارثة. هل يجب أن يوقظ الألم فجأة حد الذكريات الربانية التى تنام فى نفوسنا؟ الواقع أن العاقل ليس فى حاجة إلى هذه الهزات. إنه ينظر إلى دمعة أو إلى حركة عفوية أو إلى نقطة ماء تسقط، ويستمتع بفكرة عارضة ويشد على يدى شقيق، أو يقترب من شفاه بعينين مفتوحتين

ونفس منفتحة أيضاً؛ يرى فى كل ذلك باستمرار ما لا يراه غيره إلا للحظة. وستقوم ابتسامة ما بإعلامه دون عناء بما يمكن أن تخبره به إحدى العواصف أو حتى يد الموت.

ما هو إذن ما نسميه - فى الحقيقة - "حكمة"، و"فضيلة"، و"بطولة"، و"ساعات سمو"، و"لحظات عظيمة" فى الحياة، إذا لم تكن هذه اللحظات صابرة من الذات حيث يمكن للمرء أن يتوقف، ولو لدقيقة، على أعتاب أحد هذه الأبواب الخالدة التى ترى فيها أن أصغر صيحة وأشعب فكرة، وأضعف حركة تسقط كلها فى العدم. وحتى لو سقطت فيه، فإن هذا السقوط نفسه من الاتساع بحيث يكفى أن يعطى لحياتنا طابعاً عظيماً؟ لماذا تنتظرون أن يفتح الأفق على فرقة الصاعقة؟ من اللازم أن يكون المرء منتبهاً إلى الدقائق السعيدة التى يفتح فيها نفسه فى صمت، ويفتح فيها ذاته؛ باستمرار إنكم تبحثون عن الله فى حياتكم، وتقولون لنا إن الله لا يظهر. وما هذه الحياة التى توجد فيها آلاف الساعات، التى تماثل ساعة من هذه الدراما المأساوية التى ينتظر فيها الجميع تدخلاً إلهياً لا يلاحظه أحد، إلى أن تأتى فكرة خفية تعيد وعى أحد الموتى فجأة ويصبح أحد كبار السن، وهو ينتحب من الفرح والخوف قائلاً: "لكنه الله، ها هو الله؟"

هل يجب دائماً أن يندرنأ أحد ألا نستطيع أن نجثوا على ركبتينا إلا إذا وجد من يقول لنا إن الله يمر؟ ولو كنت قد أحببت بعمق، لما تعين على أى شخص أن يجعلك تلاحظ أن نفسك قد أصبحت شيئاً عظيماً مثل العوالم الأخرى، وأن النجوم، والأزهار وأمواج الليل، وموجات البحر، ليست وحيدة وأن أى شيء لا ينتهى، وكل شيء يبدأ عند عتبة المظاهر، وأن الشفاه التى تقبلها تنتسب إلى كائن أكثر سموً وجمالاً، وأكثر نقاء من الشخص الذى تحتويه ذراعاك. إنك ترى عندئذ ما لا نراه فى الحياة دون أن نكون سكارى، لكن ألا نستطيع أن نعيش كما لو كنا فى حالة حب دائم؟ إن الأبطال والقديسين لم يفعلوا شيئاً غير ذلك.. أه! حقيقة، إننا ننتظر فى الوجود أكثر مما ينبغى، تماماً مثل عميان تلك الأسطورة الذين قاموا برحلة طويلة ليأتوا للاستماع إلى الله.

كانوا جالسين على درجات السلم، وعندما كان يسألهم أحد عما يصنعون على عتبة المحراب كانوا يجيبون قائلين، وهم يهزون رؤوسهم: «إننا ننتظر، ولم يقل الله بعد كلمة واحدة».

ولم ير هؤلاء العميان أن أبواب المعبد الفولاذية كانت مغلقة، ولم يعرفوا أن صوت ربهم كان يجلجل في المبنى. إن إلها لا يتوقف لحظة عن الكلام، لكن أحداً لا يفكر في فتح الأبواب قليلاً؛ ومع ذلك، لو أردنا الاحتراز، فلن يكون من الصعب الإنصات إلى الكلمة التي يجب أن يقولها الله مع كل حركة.

ونحن نعيش كلنا في سمو، ففي أي شيء إذن تريدوننا أن نعيش؟

لا يوجد مكان آخر للحياة؛ والذي ينقصنا هو الانتباه والتأمل وقليل من نشوة النفس، وليست فرص العيش في السماء. وإذا لم يكن عندك إلا غرفة صغيرة، فهل تعتقد أن الله ليس فيها أيضاً، وأنه من غير الممكن أن يعيش فيها المرء حياة سامية إلى حد ما.

وإذا كنت تشتكى من الوحدة، ومن أن شيئاً لا يحدث لك، ومن أن أحداً لا يحبك وأنت لا تحب أحداً، فهل تعتقد أن الكلمات ليست خادعة؟ إن من الممكن أن يكون المرء وحيداً، وأن يكون الحب شيئاً نعرفه أو شيئاً نراه، وأن توزن الأحداث كما يوزن ذهب وفضة من يجرى فداؤهم. وهل يعتبر الفكر الحى - كبيراً كان أم صغيراً - ما دام ينبع من نفسك، إلا فكراً عظيماً.

بالنسبة لك؟ ألا يمكن لرغبة عليا، أو حتى لحظة انتباه جادة للحياة، أن تدخل في غرفة صغيرة؟ وإذا لم تكن تحب ولا يحبك أحد، وتستطيع مع ذلك أن ترى ببعض القوة أن آلاف الأشياء جميلة وأن النفس كبيرة وأن الحياة جادة غير قابلة للوصف، ألا يكون كل ذلك جميلاً بالقدر نفسه كما لو كان الناس يحبونك أو كما لو كنت أنت محباً؟

وإذا كانت السماء نفسها مختفية عنك فإن الشاعر يقول: «ألا تتسع السماء المملوءة بالنجوم رغم كل شيء لنفسك على هيئة الموت؟ إن كل ما يحدث لنا شيء ربانى كبير

لأننا نوجد دائماً في وسط عالم كبير، لكن يجب أن نتعود على أن نعيش مثل الملاك الذي نشأ حديثاً أو مثل المرأة التي تحب أو الرجل الذي على وشك أن يموت. ولو كنت تعلم أنك ستموت هذا المساء وستبتعد - بكل بساطة - للأبد، فهل كنت ستري - للمرة الأخيرة - الكائنات والأشياء كما كنت تراها حتى هذا اليوم؟ وهل كنت ستحب أكثر مما أحببت من قبل؟ هل ستزداد حولك طيبة المظاهر أو شرها؟ هل ستكون لديك الموهبة كي تلمح الجمال أو القبح في النفوس؟ أو ليس كل شيء، بما في ذلك الشر نفسه والمعاناة، سيتحول عندئذ إلى حب يمتلئ بالدموع الرقيقة جداً؟ وكما قال أحد الحكماء: هل تنزع كل فرصة للتسامح جزءاً من المرارة الأولى أو من مرارة الموت؟ وهل تسير - مع ذلك - الخطأ الأخيرة التي يُسمح بها للمرء، في لحظات اتضاح الحزن أو الموت، نحو الحقيقة أم نحو الخطأ؟

هل هم الأحياء أم الأموات الذين يعرفون كيف وكيف يكون الحق معهم؟ كم هم سعداء الذين فكروا، والذين تحدثوا، والذين تصرفوا بطريقة حصلوا معها على رضا من سيموتون أو من جعلهم الألم الشديد أصحاب بصيرة! ليس ثمة مكافأة أكثر سهولة لحكيم لم يكن أحد يسمعه في الدنيا. ولو عشت في الجمال الغامض فلا تقلق. وتنتهي ساعة من العدالة القصوى، دائماً، بأن تدق في قلب كل إنسان، تماماً كما أن التعاسة تفتح عينين لم يكونا لينفتحا قط. ومن يدري ما إذا كنت في هذه اللحظة تمر على روح ميت كما لو كنت تمر على شبح من كان يعرف الحقيقة من قبل؟ ألا يظهر التاج الحقيقي والتمين للحكيم والبطل ولجميع هؤلاء الذين عرفوا كيف يعيشون بجدية في الأعالي، وفي أحزان الحياة النقية الخفية للحياة طبقاً للروح، على سرير من يحتضرون؟

ويقول "لافاتير" "Lavater" «إن الموت لا يُجمل فقط شكلنا الجامد، لكن مجرد التفكير في الموت يعطي الحياة نفسها شكلاً أكثر جمالاً».

وبالمثل فإن كل فكرة لا نهائية تشبه الموت تجمل حياتنا، ولا يجب أن ننخدع في ذلك. وكل إنسان لديه أفكار تمر كالطيور البيضاء الكبيرة على قلبه.

وأسفاه؛ لأن هذه الأفكار لا اعتبار لها لأنها غريبة يندهش المرء من رؤيتها ويبيدها بحركة مشمئزة. ولا تمتلك هذه الأفكار الوقت كي تبلغ حياتنا، ولكي تصبح نفسنا جادة وعميقة، مثل نفوس الملائكة لا يكفي أن نرى الكون في لحظة رؤيتنا شبح الموت أو الخلود، أو في نور الفرح أو في نار الجمال والحب. وقد كان لكل كائن نصيب من هذه اللحظات التي لم تترك فيه سوى حفنة غير مفيدة من الرماد، ولا تكفى الصدفة في ذلك، بل يجب أن تكون هناك عادة. يجب أن نتعلم كيف نعيش في الجمال وفي الجدية المعتادة. وفي الحياة تستطيع أخط الكائنات أن تميز تماماً الشيء الجميل النبيل، الذي ينبغي فعله وإن كان هذا الشيء الجميل النبيل ليس لديه قوة كافية فيهم. ويجب أن نحاول تنمية هذه القوة المجردة الخفية وندفعها إلى الأمام. ولا تزيد هذه القوة إلا عند أولئك الذين اعتادوا أكثر من غيرهم الجلوس على الأعالي حيث تتصل الحياة بالروح، وحيث يرى المرء أن كل عمل وكل فكرة ترتبط حتماً بشيء عظيم خالد. انظر إلى الناس وإلى الأشياء تبعاً لشكل ورغبة رؤيتك الداخلية، لكن لا تنسى أبداً أن الظل الذي يصدر عنهم عندما يمرون على تل أو جدار، ليس إلا صورة عابرة لظل أكثر قوة يمتد كجناح بجعة ولا يمحي من أي نفس تقترب من أنفسهم. لا تعتقد أن مثل هذه الأفكار تعتبر مجرد زخارف ليس لها أي تأثير على حياة من يقبلونها. وليس مهماً كثيراً أن يغير المرء حياته بقدر ما هو مهم أن يلاحظها؛ لأن الحياة تتغير من تلقاء نفسها ما دامت تمت رؤيتها. وتشكل هذه الأفكار التي أتحدث عنها الكنز السري للبطولة؛ وفي الوقت الذي تجبرنا فيه الحياة على أن نفتح هذا الكنز، نشعر بالدهشة حين نجد أن قوى أخرى غير تلك التي تدفعنا نحو الجمال الكامل. وعندئذ لا يتعين سوى موت ملك كبير ليزكرنا أن العالم لا ينتهي عند أعتاب المنازل، وأن أصغر الأشياء تكفى لتجعل نفساً نبيلة كل مساء.

ولا يكفي أن تقول لذاتك إن الله كبير وأنت تتحرك في نوره، لكي تعيش في الجمال وفي الأعماق الخصبة، حيث يعيش الأبطال. ومن الممكن أن تتذكر صباحاً ومساءً أن أيدي جميع القوى الخفية تتحرك فوق رأسك مثل خيمة لها ثنيات لا حصر لها دون أن تلاحظ مطلقاً أقل حركة لهذه الأيدي. يجب أن يكون المرء منتبهاً بالفعل، ويتعين أكثر

من ذلك أن يراقب الميدان العام أكثر مما ينال داخل المعبد. ويوجد الجمال والعظمة في كل شيء، ويكفى حدوث ظرف غير متوقع حتى نراهما. ويعرف الكثيرون ذلك كما عرفوه كثيراً من قبل: ولم يتسكعوا حول جدار الوجود، بحثاً عن ثقب توصلهم لله، إلا تحت ضربات سوط القدر أو الموت، وهم لا يجهلون أن هناك ثقباً أبدياً في جوانب أى كوخ، وأن أصغر ألواح الزجاج لا يمكنها أن تنتزع خطأً أو نجماً من الفضاء السماوى الفسيخ، لكن لا يكفى أن نمتلك الحقيقة بل يلزم أن نمتلكنا الحقيقة.

ومع ذلك فنحن فى عالم تكتسب فيه أبسط الأحداث ودون جهد، جمالاً يتزايد نقاؤه وسموه. وليس هناك ما يختلط ببعضه بسهولة خيراً من الأرض والسماء؛ ولو نظرت إلى النجوم قبل أن تقبل حبيبك، فلن تقبلها بالكيفية نفسها التى تقبلها بها لو نظرت إلى جدار غرفتك. وتأكد أنه فى اليوم الذى تتأخر فيه عن متابعة شعاع من الضوء صادر من ثقب أبواب الحياة، فستكون قد جئت بأمر عظيم يماثل ما يحدث عندما تضمد جراح عدو؛ لأنه فى تلك اللحظة لن يكون لك عدو.

ويجب أن يعيش المرء فى حمى إله؛ لأن الإله يخفى نفسه، لكن لو عرف المرء جوانب مكره، فإن هذا المكر يبدو بسيطاً وبسماً. وعندئذ لن يوجد شيء يظهر لنا وجوده، وستكون عظمة حياتنا مرتبطة بأقل الأشياء! وهكذا نجد عند الشعراء بيت شعر هنا أو هناك يفتح لنا فجأة شيئاً عظيماً، ولم ينطق أحد بأية كلمة مهيبة، وقد يُقال إن شيئاً لم يتم استدعاؤه؛ فلماذا إذن يشير لنا وجه يعلوه البؤس بسبب دموع شيخ كبير؛ ولماذا يحيط هذا الليل، الملىء بالملائكة، ببسمة طفل؛ ولماذا نقول لأنفسنا فجأة ونحن نمسك أنفاسنا عندما تنطق نفس منشغلة بأمر آخر، بلا أو بنعم: «هنا يوجد بيت الله، وهنا مداخل السماء؟».

وهذا كله يرجع إلى أن الشعراء كانوا أكثر انتباهاً منا إلى «هذا الظل الذى لا ينتهى».

وفى الحقيقة ليس الشعر السامى إلا كذلك، وليس له هدف آخر سوى أن يفتح «الطرق الكبرى التى تؤدى مما نراه إلى ما لا نراه»، لكن هذا أيضاً هو الهدف

الأسمى للحياة، ومن السهل أن نصل إليه فى الحياة بدلاً من أن نصل إليه من خلال القصائد النبيلة؛ لأنه تعين على القصائد أن تترك جناحى الصمت الكبيرين. ولا توجد أيام قصيرة، ويلزم أن تنزل هذه الفكرة إلى حياتنا وتتحول فيها إلى جوهر، ولا يتعلق الأمر بكون المرء حزيناً؛ لأن الأفراح الصغيرة والابتسامات الصغيرة والدموع الكبيرة، كل ذلك يحتل المركز نفسه فى المكان والزمان. ويمكنك أن تلعب فى الحياة بنفس براءة «طفل حول سرير أحد الموتى»، وليست الدموع هى المطلوبة حتماً، ذلك لأن الابتسامات والدموع تفتح أبواب العالم الآخر؛ ولتذهب، ولتجىء، ولتخرج، فستجد ما يلزمك فى الظلمات، لكن لا تنس أبداً أنك بالقرب من الأبواب.

* * *

وبعد هذه الدورة الطويلة، أعود إلى نقطة البداية، وهى أنه من «الأفضل أن نذكر الناس أن أكثرهم بساطة له القدرة على أن يبدع - طبقاً لنموذج ربانى لا يختاره - شخصية معنوية تتكون من أجزاء متساوية، ومنه نفسه، ومن المثل الأعلى». ولكن هذه الشخصية المعنوية لا يتم إبداعها إلا فى أعماق الحياة، كما أن مخزون المثالية الضرورى لا يزيد إلا بفضل إلهامات ربانية مستمرة. وكل إنسان يمكنه أن يصل بالفكر إلى قمم الحياة الفاضلة ويعرف فى كل لحظة ما ينبغى عليه أن يفعله ليتصرف باعتباره بطلاً أو قديساً، لكن ذلك ليس هو المهم، بل يجب أن يتحول المناخ الروحى إلى نقطة ما حولنا بحيث نتمكن من أن نشبه تلك البلاد الجميلة فى العصر الذهبى الذى كان يعيش فيه "سويدنبرج" Swedenborg، حيث لم يكن الجو يسمح للأكنوبة أن تخرج من اللسان. وتحدث عندئذ لحظة يسقط فيها أقل شر نريده أن يقع عند أقدامنا، كما تسقط الرصاصات على أسطوانة برونزية، ويتغير كل شىء تقريباً دون أن ندري، إلى جمال وحب ويقين، لكن هذا المناخ لا يشمل إلا أولئك الذين عنوا بأن يغيروا هواء حياتهم عن طريق فتح أبواب العالم الآخر قليلاً؛ لأنه من هذه الأبواب نستطيع أن ننظر. وبالقرب من هذه الأبواب نحب؛ لأن حبّ القريب ليس فقط بالاستسلام تماماً له، لكن بخدمة

ومساعدة وإغاثة الآخرين. ومن الممكن ألا تكون طيباً ولا جميلاً ولا نبيلاً وسط أكبر التضحيات؛ وربما تكون لدى راهبة الخير، التي تموت بالقرب من سرير مريض بالتيفود، نفس حاقدة، صغيرة وبائسة.

وإذا أحب المرء قريبه في الأعماق الثابتة، فإن هذا الحب يعنى حب كل ما هو خالد لدى الآخرين؛ لأن القريب جداً هو الذى يقترب أكثر من الله، أى من كل ما هو نقى وطيب عند البشر؛ وعند وقوفك فقط حول الأبواب التى تحدثت عنها الآن، تكتشف كل ما هو ربانى فى النفوس.

وعندئذ يمكنك أن تقول مع "جان بول" "Jean Paul": «عندما أريد أن أحب بكل حنان شخصاً عزيزاً أسامحه على كل شئ»، لا أفعل سوى أن أنظر إليه - بعض الوقت - فى صمت» يجب أن نتعلم كيف نرى كى نتعلم كيف نحب. وذات يوم قال لى صديق «لقد عشت أكثر من عشرين سنة فى نواحي أختى، ورأيتها لأول مرة لحظة وفاة أمنا». وكان يتعين أن يفتح الموت هنا أيضاً ويعنف باباً خالداً حتى تتراعى نفسان فى شعاع من النور الفطرى. فهل يوجد واحد فقط من بينكم أحاطت به أخواته اللاتى لم يرهن؟

ولحسن الحظ، يوجد فى هؤلاء الذين لا يكانون يرون، شيئاً ما يتحرك فى صمت كما لو كانوا يرون ومن الممكن أن يكون المرء طيباً بقليل من النور؛ لأن الجميع يوجودون فى الظلمات. ولهذا فإنه من المفيد بلا شك أن يبذل المرء جهداً، كى يسمو بحياته ويتجه إلى الأعالي حيث يمكن الوصول إلى استحالة ارتكاب الشر. ومن المفيد أيضاً أن يعود المرء عينه على النظر إلى الأحداث وإلى البشر فى مناخ ربانى، لكن ذلك نفسه ليس محتملاً؛ لأن الفارق فى نظر إله ما، يجب أن يبدو صغيراً! ونحن فى عالم تسود فيه الحقيقة فى أعماق الأشياء وفى حيث لا توجد الحقيقة، وإنما يوجد الكذب الذى يحتاج إلى إيضاح. وإذا كانت سعادة أخيك تحزنك فلا تحتقر نفسك، ولن يكون أمامك طريق طويل يتعين عليك اجتيازه كى تجد فى نفسك شيئاً غير محزن، وإذا لم تستطع اجتياز الطريق فلا تهتم، ذلك لأن شيئاً لم يسبب الحزن.

والذين لا يفكرون فى شىء لديهم الحقيقة نفسها التى لدى من يفكرون فى الله، وإن كانت أقل قرباً من عتبة الباب. هذا هو كل شىء. ويقول "رينان" "Renan": «حتى فى الحياة الأكثر شعبية، نجد أن ما يفعله الناس من أجل الله كبير؛ لأن أقل الناس يفضل أن يكون عادلاً ولا يكون ظالماً، وكلنا نقوم بأداء العبادة وندعو مرات كثيرة فى اليوم دون أن ندري»، ويشعر الإنسان بالدهشة حينما تظهر له الصدفة فجأة أهمية هذا الجزء الربانى ويوجد كل شىء حولنا، آلاف وآلاف من فقراء البشر لم يروا شيئاً من الجمال فى حياتهم، يذهبون ويجيئون فى الظلام، ويظنون أن كل شىء قد مات دون أن يلتفت أحد؛ وكل ما يحدث فى كل يوم لا يتعدى مجرد كلمة، أو صمت غير متوقع، أو دمة صغيرة تأتى من مصادر الجمال نفسها، وتعلمنا أن هؤلاء الفقراء قد وجدوا وسيلة للسمو فى ظل أنفسهم، ومثالية أكثر جمالاً ألف مرة من أجمل الأشياء التى سمعتها أذانهم ورأتها أعينهم. أليست مثاليات الصمت والظلام ونبيلها تستحق الإعجاب!

إنكم أنتم الذين توقظكم بسمه الملائكة وتصعدون إلى الله، فى أى أكواخ متعددة وفى أى غرف بائسة وربما فى أية سجون تتغنون فى هذه اللحظة من الدموع ومن الدم الزكى لنفس مسكينة لم تبتسم قط تماماً مثل أسراب النحل، التى تموت حولها كل الزهور ومع ذلك تقدم لمن ستكون ملكتها عسلاً أثمن ألف مرة من العسل، الذى تعطيه لأخواتها الصغيرة فى الحياة المعتادة... من منا لم يقابل أكثر من مرة، على طول طرقات الحياة، نفساً مهجورة لم تفقد مع ذلك شجاعة أن تغذى فى الظلام فكرة أكثر ربانية وأكثر نقاء من كل تلك الأقطار، التى كان لدى كثيرين آخرين فرصة الذهاب للاختيار من بينها فى النور؟ وهنا أيضاً نجد البساطة التى تعتبر الأمة المفضلة لدى الله، وربما يكفى ألا يجهل بعض الحكماء ما ينبغى فعله حتى يتحرك الباقون، كما لو كانوا هم أيضاً يعلمون.

الفصل الثالث عشر

"الجمال الداخلى"

لا يوجد شىء فى العالم أكثر تطلعاً للجمال، ولا يوجد شىء فى العالم يجمّل نفسه بسهولة أكثر من النفس، ولا يوجد شىء فى العالم يسمو بشكل أكثر طبيعية ويعطى لنفسه نبلاً بسرعة أكبر؛ ولا يوجد شىء فى العالم يستجيب بكل نزاهة للأوامر الشفافة والنبيلة التى يؤمر بها؛ ولا يوجد شىء فى العالم يعانى إلى حد ما من وجود فكرة أسمى من الأفكار الأخرى أكثر من النفس، وهناك أيضاً عدد قليل من النفوس على الأرض تقاوم سيطرة نفس تترك نفسها لتتجمّل.

ويقال حقيقة إن الجمال هو الغذاء الوحيد لنفسنا، التى تبحث عنه فى كل مكان وفى أبسط أنواع الحياة. وهذه النفس لا تموت من الجوع؛ لأنه لا يوجد جمال يمر هكذا دون أن يلحظه أحد تماماً. ويمكن ألا يمر هذا الجمال مطلقاً إلا فى اللاشعور، لكنه ينشط بقوة فى الليل عنه فى النهار. ويحدث هذا الجمال فى النهار فرحاً لا يمكن إدراكه كثيراً، وهذا هو الفارق الوحيد. وإذا تفحصنا أبسط الناس حين يضىء ظلماتهم قليل من الجمال. سيكونون هناك متجمعين فى أى مكان، وحينما يتجمعون دون أن نعرف لماذا، يبدو أن أول ما يقومون به هو إغلاق بوابات الحياة الكبيرة. ومع ذلك فإن كل واحد منهم عاش أكثر من مرة طبقاً لنفسه حينما كان وحيداً، وربما يكون قد أحب وعانى بالتأكيد، وقد سمع هو أيضاً دون شك «أصوات مكان النعيم البعيد وكذلك أصوات الفرع» وعرف جيداً أمسيات خضع فيها للصمت أمام قوانين أكثر عمقاً من البحر ومع ذلك عندما يكون الناس معاً، فإنهم يحبون أن يتتشوا بارداً الأشياء.

ولديهم خوف، لا أعرف كنهه، من الجمال، وكلما كانوا أكثر عدداً زاد خوفهم، كما أنهم يخافون بشدة من الصمت أو من الحقيقة المجردة. وهذه حقيقة إلى درجة أنه لو قام واحد منهم فى أثناء النهار بعمل بطولى، فإنه قد يحاول أن يلتمس العذر لقيامه بهذا العمل عن طريق إرجاعه ما قام به إلى دوافع تافهة، أو إلى دوافع يلجأ إليها فى مناطق سفلية يتجمع فيها الناس. ومع ذلك استمع إلى ما يلى: لقد نُطقت كلمة سامية تتسم بالفخر وأعادت إلى حد ما فتح منابع الحياة، وللحظة تجرأت إحدى النفوس على الظهور، كما هى فى الحب وفى الألم، أمام الموت أو فى ظل الوحدة فى وجود نجوم السماء. وظهر بعض القلق، وشعرت الوجوه بالدهشة أو بالابتسام، لكن ألم تشعر قط فى هذه اللحظات بالقوة الكبيرة التى تُعجب بها النفوس، وأضعفها يوافق - بشكل لا يمكن وصفه - من أعماق سجنه على الكلمة التى رأت أنها تماثلها؟

وهذه النفوس تعيش مرة أخرى فجأة فى جوها البدائى المعتاد؛ ولو كانت لديك أذان الملائكة فربما كنت ستسمع - وأنا متأكد من ذلك - تصنيفات قوية فى مملكة الأنوار العجيبة التى تعيش فيها الملائكة. هل تعتقد أنه لو نُطقت كلمة مماثلة - كل مساء - ألا تكون أشد النفوس خوفاً أكثر شجاعة، وأن الناس لن يعيشوا إلا بشكل أفضل؟ بل لا يجب أن تعود كلمة مماثلة، لأن شيئاً أكثر عمقا قد حدث وسيترك أثراً عميقة جداً، وسيتم التعرف كل مساء على هذه الكلمة التى نُطقت بواسطة أخواتها من النفوس، كما أن مجرد حضورها سيوجد فيما بعد شيئاً عظيماً لا أعرف كنهه فى أشد الكلمات تفاهة. وفى جميع الأحوال سيوجد تغيير لا يمكن تحديده، ولن يكون للأمور السفلية القوة الخاصة نفسها، وستعرف النفوس المنزعجة أن هناك ملاذاً فى مكان ما.

ومن المؤكد أن العلاقات الطبيعية والبدائية بين نفس ونفس هى علاقات جمالية، لأن الجمال هو اللغة الوحيدة لنفوسنا التى لا يمكنها أن تفهم لغات أخرى، ولن تكون لهذه العلاقات حياة أخرى، لأنها لا يمكنها أن تنتج شيئاً آخر ولا يمكنها أن تهتم بشيء آخر، ولذلك فإن كل فكرة، وكل كلمة، وكل فعل كبير وجميل سيقابل بالترحاب من جانب أكثر النفوس اضطهاداً، بل ربما أقلها مقداراً إذا كان يمكننا أن نقول ذلك.

وليس للنفس عضو يربطها بعنصر آخر، ولا يمكنها أن تصدر حكماً إلا وفقاً للجمال. وأنتم ترون ذلك كل لحظة فى حياتكم، ومع أنكم أنتم الذين سبق أن أنكرتم الجمال أكثر من مرة، فإنكم تعرفونه جيداً مثل هؤلاء الذين يبحثون عنه دائماً فى قلوبهم. ولو حدث - ذات يوم - أن احتجت بشدة إلى كائن آخر ألن تذهب إلى ذلك الذى ابتسم ابتسامة بسيطة حينما مرّ به الجمال؟ هل ستذهب إلى من دنس بإيماءة من رأسه عملاً طيباً، أو حتى مجرد اتجاه شفاف؟ وربما تكون أنت من الذين يوافقون على ذلك، لكن فى هذه اللحظة الجادة التى تدق فيها الحقيقة بابك، ستتجه إلى هذا الآخر الذى عرف كيف ينحنى وكيف يحب، لقد أصدرت نفسك حكماً فى أعماقها، وحكمها الصامت الصحيح الذى يمكن أن يصعد - ربما بعد ثلاثين سنة إلى السطح ويبعث بك إلى نفس شقيقة أكثر التصاقاً بك من ذاتك؛ لأنها كانت أكثر قريباً من الجمال.

ويتعين فعل أشياء قليلة كى نشجع وجود الجمال فى نفس ما، ويجب أيضاً القيام بأمر بسيط كى نوقظ الملائكة النائمة، وربما لا يلزم إيقاظها، لكن يتعين فقط عدم النوم وليس ذلك نهوضاً بل نزولاً يتطلب جهوداً. ألا يتعين بذل جهد كى لا يفكر المرء إلا فى أمور ضئيلة الشأن أمام البحر أو فى مواجهة الليل؟ وما هذه النفس التى لا تعرف أنها توجد دائماً أمام البحر، ودائماً أيضاً فى حضور ليل خالدة؟ ولو كنا أقل خوفاً من الجمال، لكنا قد وصلنا إلى ألا نجد شيئاً آخر فى الحياة؛ لأنه، فى الحقيقة، لا يرى المرء - تحت كل ما يراه - شيئاً موجوداً إلا ذلك. وكل النفوس تعرف هذا الأمر، وكل النفوس مستعدة، لكن أين هى النفوس التى لا تخفى جمالها؟ لكن ينبغى أن تأخذ واحدة منها زمام «المبادأة» ولماذا لا تكون هناك جرأة من إحدى النفوس على هذه «المبادأة»، وستكون جميع النفوس الأخرى موجودة تتطلع من حولنا مثلما يتطلع الأطفال الصغار إلى قصر عجيب، حيث يتدافعون على أعتابه ويتهايمسون وينظرون من خلال الثقوب، لكن لا يجرؤن على دفع الباب، وينتظرون أن تأتى شخصية كبيرة لتفتحه، لكن هذه الشخصية الكبيرة لا تمر أبداً تقريباً.

ومع ذلك فماذا ينبغى عمله كى يصبح المرء تلك الشخصية الكبيرة المأمولة؟ لا شئ تقريباً؛ لأن النفوس ليس لها مطالب، والفكرة الجميلة تقريباً هى تلك التى لا تذكرها،

ومع ذلك فهي الفكرة التي تقوم بتغذيتها في هذه اللحظة كي تنير لك مثلما تضيء
فازة شفافة. وترى النفوس هذه الفكرة وتستقبلك بطريقة أخرى مغايرة لاستقبالها لك
كما لو كنت تفكر في خداع أخيك، ونشعر بالدهشة عندما يقول لنا بعض الناس إنهم
لم يقابلوا مطلقاً أى قبح حقيقى، وأنهم لا يعرفون - حتى الآن - معنى كلمة نفس
وضيعة لكن ذلك ليس مثيراً للدهشة، فهم كانوا قد «بدأوا»، لأنهم كانوا هم أول
الجملاء وجذبوا إليهم كل جمال كان يمر، تماماً مثل الفئار الذي يجتذب السفن من كل
أركان الأفق.

وهناك من يشتكى من النساء على سبيل المثال، ولا يفكرون أنه في المرة الأولى
لمقابلة امرأة تكفى كلمة واحدة، أو فكرة واحدة لإنكار ما هو جميل وما هو عميق؛ كي
تسمح وجودك في نفسها للأبد. وقد قال لى أحد الحكماء ذات يوم: «بالنسبة لى لم
أعرف امرأة واحدة لم تمنحنى شيئاً عظيماً» لقد كان هو أولاً عظيماً، وكان هذا هو سره.
ولا يوجد سوى شىء لا تتسامح فيه النفس أبداً وهو أن تضطر النفس إلى أن تنتظر
إلى عمل ما، أو إلى كلمة أو فكرة قبيحة أو أن تتشاطر فيها أو تحتك بها. ولا يمكن لهذه
النفس أن تتسامح فى ذلك؛ لأن التسامح هنا يعنى إنكار ذاتها ورغم هذا فإنه بالنسبة
لعظم الناس لا يعنى كون المرء ماهراً أو قوياً أو ذكياً إبعاد نفسه، بادئ ذى بدء، عن
حياته، لأن ذلك يعتبر بمثابة إبعاد للاتجاهات شديدة العمق بكل عناية، وأولئك الناس
يتصرفون على هذا النحو حتى فى الحب، ولذلك فإن المرأة التى لا تزال قريبة من
الحقيقة ليس لديها مطلقاً - تقريباً - لحظة من الحياة الحقيقية معهم.

وربما يقال إن الناس يخشون الاتصال بالنفس وإن المرء يهتم بأن يظل على بعد
ألف فرسخ من جمالها، وعلى العكس يكون من المتعين أن يسير المرء أمام ذاته. فكر أو
قل فى هذه اللحظة أشياء فائقة الجمال حتى تكون هذه الأشياء حقيقة فيك، وبالفعل
ستكون حقيقة فى الغد لو حاولت أن تفكر فيها أو تذكرها فى المساء. فلنحاول إذن أن
نكون أكثر جمالاً من أنفسنا، ونحن فى ذلك لا نتجاوز أنفسنا، ولسنا نخطئ عندما
يتعلق الأمر بجمال صامت أو مستتر.

وفضلاً عن ذلك، فمن المهم إلى حدّ ما أن يخطئ المرء أو لا يخطئ ما دامت تأتي اللحظة التي يتضح فيها تماماً المصدر الداخلى، لكن من ذا الذى يفكر إذن فى أن يقوم بأقل جهد لا يراه أحد؟ ومع ذلك فنحن نوجد هنا فى مجال كل شىء فيه فعّال؛ لأن الجميع ينتظرون. وكل الأبواب مفتوحة ولا يبقى سوى دفعها؛ والقصر مملوء بالملكات المقيدات؛ وفى أحيان كثيرة تكفى كلمة واحدة كى ننظف تلالاً من النفايات. فلماذا إذن لا تكون هناك شجاعة فى إجابة نبيلة عن سؤال وضيع؟ وهل تعتقد أن مثل هذه الإجابة ستمر هكذا دون أن يراها أحد، أو أنها لن تبعث سوى على الاندهاش؟

هل تعتقد أن كل ذلك لا يقترب أكثر من الحوار الطبيعى بين نفسين؟ لا نعرف ما إذا كان هذا الأمر يبعث على التشجيع أو الخلاص. بل إن من يرفض هذه الإجابة سيقوم بخطوة - رغماً عنه - نحو جماله الخاص به؛ لأن الشىء الجميل لا يموت دون أن يطهر شيئاً ما، فليس هناك جمال يضيع. ولا يجب أن نخشى بذر هذا الجمال فى الطرقات، لأن بذوره ستبقى فيها أسابيع وسنوات، لكنها لن تتحلل أكثر من الألباس؛ وفى نهاية المطاف سيمر أحد ليراها وهى تلمع، ومن يلتقطها سيذهب وهو سعيد. لماذا إذن تكتم فى نفسك كلمة حلوة وسامية؛ لأنك تعتقد أن الآخرين لا يفهمونك؟ لماذا تعرقل لحظة طيبة سامية ناشئة ظناً منك أن المحيطين بك لن يستفيدوا منها شيئاً؟

لماذا تكتم لحظة غريزية فى نفسك نحو الأعلى؛ لأنك من أهل الوديان؟ هل يحدث ذلك؛ لأن الشعور العميق يفقد مفعوله فى الظلام؟ وهل ليس لدى الأعمى وسائل أخرى غير العينين يكتشف بها من يحبون ومن لا يحبون؟ هل يحتاج الجمال إلى أن يكون مفهوماً كى يوجد. ومن جهة أخرى، هل تظن أنه لا يوجد فى كل إنسان شىء ما يتجاوز ما يبدو أنه مفهوم، أو يتجاوز ما يعتقد كائن ما؛ إن الجمال سيتوقف عن كونه شيئاً جميلاً ميتاً نريه للغرباء، لكن فجأة تدب فيه حياة كبيرة وتصبح فعاليته طبيعية جداً لا يقاومها شىء. ولهذا لا تفكر فيه وحدك؛ لأنه يتعين أنه ينتبه الطيبون إلى التفكير فيه أيضاً.

وفى الفصل الثامن من الباب الخامس من "الإنياد" "Ennéade"، وبعد أن تحدث عن الجمال «المفهوم» أى الجمال الربانى، يختتم "بولتان" "Plotin" كلامه قائلاً: «بالنسبة لنا نكون جملاء حينما تنتسب إلى أنفسنا، ونكون قبيحين عندما ننزل إلى طبيعة سفلية، ونكون جملاء أيضاً عندما نعرف أنفسنا وقبيحين حينما نجهلها». لكن يجب ألا ننسى أننا نوجد هنا على جبال ولو تجاهلنا أنفسنا فذلك لا يعنى ببساطة أننا لا نعرف ما يجرى فى ذاتنا عندما نكون فى حالة حب أو غيرة، أو فى حالة خجل أو حقد، أو فى حالة سعادة أو تعاسة. وإذا جهلنا أين نكون، فإننا بذلك نجهل ما يحدث من ربانية لدى الناس، ونكون قبيحين عندما نبتعد عن الإلهة الموجودة فينا ونصبح جملاء بقدر ما نكتشف هذه الإلهة.

ولكننا لن نجد ما هو ربانى عند الآخرين إلا حينما نريهم أولاً ما هو ربانى فى ذاتنا، ويلزم أن يشير أحد هذه الإلهة إلى إله آخر، ولسنا فى حاجة إلى أن نقول إنه لا يتوجب سوى وجود شرح صغير لا يرى تقريباً، حتى تنزل المياه من السماء وتدخل إلى نفس ما. وستتجه كل الكنوس عندئذ إلى هذا النبع المجهول؛ وسنكون فى ذلك الوقت فى مكان لا تفكر فيه سوى فى الجمال. ولو كان بوسع أحد أن يسأل أحد الملائكة عما تفعله أنفسنا فى الظلام، فأظن أنه قد يرد على ذلك قائلاً بعد أن ينظر إلى سنوات طويلة تتجاوز ما يمكن أن تكون قد أحدثته فى أعين الناس: «إن هذه النفوس ستحول أصغر الأشياء التى تُقدم إليها إلى جمال» أه! يجب أن نعترف بأن النفس البشرية لديها شجاعة خاصة! فهى تستسلم للعمل فى الظلام ليلة بأكملها؛ حيث ينساها معظمنا وحيث لا يتحدث إليها أحد. وستفعل النفس فى هذه الليلة ما يمكنها أن تفعله دون أن تشتكى، وستحاول أن تنتزع من الحصى التى تلقى عليها نواة النور الخالد، الذى ربما تحتزنه هذه الحصى. وبينما هى تقوم بذلك، تنتظر اللحظة التى يمكن فيها أن ترى - إلى أحب شقيقاتها أو إلى أقربهن إليها بالصدفة - الكنوز التى حصلت عليها بعملها والتقطتها، ورغم هذا توجد آلاف من الموجودات لا تزورها شقيقة واحدة لها؛ وجعلتها الحياة شديدة الحياء إلى درجة أنها تذهب دون أن تقول شيئاً، ولا تحمل أبسط أنواع الزينة التى يتزين بها أبسط الناس، ولو لمرة واحدة، فى تاجها المتواضع.

وعلى الرغم من كل شيء، فإن هذه النفس ترعى كل شيء فى سمائها المخفية. فهي تنذر وتحب وتعجب وتجذب وتصد. ومع كل حدث جديد، تصعد مرة أخرى إلى السطح وتنتظر إلى أن تضطر إلى النزول؛ لأن الناس يعتبرونها مثيرة للضيق ومجنونة. وهي تتجول مثل "كاسندرا" "Kassandra" تحت أقدام "الأتريد" "Atrides" قائلة باستمرار كلمات ليست صحتها سوى الشبح، ولا يستمع إليها أحد. ولو رفعنا أعيننا، فنرى أن هذه النفس تنتظر شعاعاً من الشمس أو من النجم تصنع منه فكرة أو اتجاهًا لا واعياً شديد الشفافية. وإذا كانت عيوننا لا تمثل بالنسبة لها شيئاً، فإنها تعرف كيف تحول خيبة أملها المسكينة إلى شيء لا يمكن وصفه تخفيه حتى الموت. ولو كنا نحب فإنها ستنتشى بالنور وراء باب مغلق وتتغلق بالأمل ولا تضيع الساعات، ويصبح هذا النور الذى تصفیه الثقوب شيئاً من الطيبة والجمال أو من الحقيقة بالنسبة لها، لكن الباب لا يفتح (وفى كم من الموجودات يفتح؟). وتعود النفس إلى سجنها، وربما سيكون أسفها أكبر حقيقة يراها المرء مطلقاً؛ لأننا نوجد فى مكانه تغيرات لا توصف، وما لم يتولد من هذه الناحية من الباب لا يكون مفقوداً، لكن لا يختلط بهذه الحياة.

وقد كنت أقول للتو إن النفس تحول كل الأشياء الصغيرة التى تعطى لها إلى جمال. بل إنه يبدو - كلما فكرنا فى هذا الأمر - أنه ليس لوجود هذه النفس سبب آخر، وأن كل فعاليتها تستخدم فى أن تجمع فى أعماقنا كنزاً من الجمال، ربما لا نستطيع وصفه. هل لا يتحول كل شيء بالطبع إلى جمال إذا لم نأت لنعرقل باستمرار العمل الشاق الذى تقوم به نفسنا؟

ألا يصبح الشر نفسه ثميناً حينما نستخرج منه ألماس الندم العميق؟ ألا ينتهى الأمر بأنواع الظلم التى ارتكبتها والدموع التى أسلتها يوماً ما، إلى أن تصبح هى نفسها فى نفسك نوراً وحباً؟

هل حدث أن نظرت إلى ذاتك فى مملكة نيران التطهير؟ لقد أصابوك بضرر كبير اليوم؛ وكانت التحركات بسيطة، وكان الفعل منخفضاً وحزيناً، وبكيت فى ظل القبح. ومع ذلك تعال كى تلقى نظرة على نفسك بعد ذلك بيضع سنين، وقل لى إذا ما كنت ترى،

فى ذكرى أى فعل، شيئاً ما أكثر نقاء من أى فكرة، وقوة لا يمكن تسميتها ليست لها علاقة مع القوى العادية فى هذا العالم، ومنبعاً لا أعرفه «لحياة أخرى» تنهل منه دون أن ينفد حتى أيامك الأخيرة، رغم أنك لم تقم بمساعدة تلك الملكة التى لا تتعب؛ وكنت تفكر فى شىء آخر بينما كان الفعل ينقى نفسه دون أن تدرك فى ظل صمت وجودك، ويعمل على زيادة الماء الثمين الموجود فى خزان الحقيقة أو الجمال غير المعكّر، كما يحدث فى الخزّان الأقل عمقاً للأفكار الحقيقة أو الجميلة، والذى يعتبر دائماً فى مأمن من عواصف الحياة.

ويقول "إيمرسون" "Emerson" إنه «لا يوجد حدث أو واقعة فى وجودنا لا يفقد شكله الخامد عاجلاً أو آجلاً، أو مادته اللاصقة؛ ولا يدهشنا حين يصل إلى أوجه فى أعماق جسدنا»، وهذا حقيقى إلى حد كبير؛ لأن "إيمرسون" "Emerson" لم يكن يتوقعه؛ لأنه كلما تقدم المرء فى هذه الأماكن يكتشف أفاقاً أكثر ربّانية.

ولسنا نعلم كنه هذه الفاعلية الصامته للنفوس التى تحيط بنا، ولقد سبق أن قلت كلمة صافية لكائن لم يفهمها، واعتقدت أنها ضاعت ولم تعد تفكر فيها، إلا أنه ذات يوم - وبالصدفة - برزت الكلمة مع تحولات غير مسموعة بحيث يمكننا أن نرى الثمار غير المنتظرة التى حملتها فى الظلمات؛ ثم سقط كل شىء مرة أخرى فى الصمت، لكن ماذا يهم؟ لقد علمنا أن شيئاً لا يضيع فى نفس ما؛ لأن أصغر النفوس لديها لحظات من العظمة. وليس ثمة خداع فى ذلك، فأتعس الناس وأكثرهم حرماناً يمتلكون - رغماً عنهم وفى أعماق وجودهم - كنزاً من الجمال لا يمكنهم الانتقااص منه؛ ذلك لأن الأمر يتعلق فقط بالتعود على النهل من هذا الكنز. ويتعين ألا يظل الجمال مجرد احتفالية معزولة فى الحياة، وإنما احتفالية يومية. ولا يلزم بذل جهد كبير لكى يكون المرء مقبولاً من صفوف «هؤلاء الذين تعتبر الأرض بالنسبة لهم مليئة بالزهور، والسماء لامعة، ليس فى مجرد أجزاء لانهائية منها، لكن فى تراكمات عليها»، وأنا هنا أتحدث عن زهور وعن سماء أكثر نواماً ونقاءً من تلك التى نراها، وتوجد ألف قناة يصعد بها جمال نفسنا إلى فكرنا، من بيتها على وجه الخصوص القناة العجيبة والمركزية للحب.

ألا توجد فى الحب أنقى عناصر الجمال التى يمكن أن نقدمها إلى النفس؟ وتوجد كائنات تحب بعضها بهذا الشكل فى الجمال؛ والحب بهذه الكيفية يعنى افتقاد معنى القبح، أى أن يصبح المرء أعمى لا يرى كل الأشياء الصغيرة ولا يلمح إلا انتعاش وعذرية أبسط النفوس، والحب على هذا النحو يعنى ألا يحتاج المرء إلى أن يتسامح. الحب بهذا الشكل يعنى عدم استطاعة إخفاء أى شىء؛ لأنه لا يوجد شىء مما تقدمه النفس لا يتحول إلى جمال. الحب على هذا النسق يعنى ألا ترى السيئ إلا كى تتسامح فيه وتتعلم ألا تخلط بين من ارتكب الخطيئة وبين خطيئته. الحب على هذا الشكل يعنى أن يرفع المرء فى ذاته كل هؤلاء الذين يحيطون بنا إلى الأعالي؛ حيث لا يمكنهم أن يخطئوا، وبحيث إذا حدث عمل سيئ يتعين سقوطه من أعلى إلى الأرض، فإنه يقدم مع سقوطه نفسه الماسية. الحب بهذه الهيئة يعنى تغيير أصغر النوايا الموجودة حولنا - نون أن نعرف - إلى حركات لا حدود لها. الحب بهذه الطريقة يعنى استعداد كل ما هو جميل على الأرض وفى السماء وفى النفس إلى وليمة الحب. الحب بهذا الشكل يعنى الوجود أمام الكائن كما نوجد أمام الله. الحب بهذه الكيفية يعنى استعداد وجود المرء وجميع كنوزه عند أقل حركة. وعلى هذا فلم يعد يلزم أن يكون هناك الموت أو الآلام أو الدموع كى تظهر النفس، بل تكفى ابتسامة. الحب على هذا النحو يعنى النظر إلى الحقيقة فى السعادة بعمق يماثل ما يراه بعض الأبطال، حينما تتضح أمامهم أنوار الآلام الكبرى. الحب بهذا النسق يعنى ألا يميز المرء بين الجمال الذى يتحول إلى حب وبين الحب الذى يتحول إلى جمال. الحب هكذا يعنى ألا يمكن للمرء - بعد الآن - أن يذكر أين ينتهى شعاع نجم ما أو فى أى مكان تبدأ قبلة الفكر المشترك. الحب بهذه الطريقة يعنى الوصول قريباً جداً من الله وأن تكون الملائكة مستحوذة على المرء. الحب بهذه الكيفية يعنى أن نُجمل معاً ذات النفس التى تصبح - قليلاً قليلاً - الملاك الوحيد الذى يتحدث عنه "سويدنبيرج" "Swedembarg". الحب بهذه الطريقة يعنى أن نكتشف - كل يوم - جمالاً جديداً فى هذا الملاك الغامض. ويعنى أيضاً السير معاً مع طيبة تتزايد وتتدفق بالحيوية والسمو، خاصة وأنه توجد أيضاً طيبة ميتة لا تُصنع إلا من الماضى،

لكن الحب الحقيقي يجعل الماضى عديم الفائدة، ويخلق عند الاقتراب منه مستقبلاً
زاهراً بالطيبة بلا آلام وبلا دموع. الحب هكذا، هو أن يخلص المرء نفسه ويصبح جميلاً
مثل نفسه التى خلُصت. وبهذا الصدد قال "بلوتان" "Plotin" العظيم أشياء مماثلة:
«إذا كان الانفعال الذى يسببه لك هذا المشهد، فى كل الكتابات التى أعرفها، هو الذى
يقترب كثيراً من الرب، وإذا كنت لا تذكر - فى ظل التأثير الذى يسببه لك المشهد -
أنه جميل، وإذا لم تشعر، وأنت تُمعن النظر إلى ذاتك وأنت تراه، بفتنة الجمال، فإن
بحثك عن الجمال العقلانى - وأنت فى هذه الحالة - سيكون بلا جدوى؛ لأنك قد
لا تبحث عنه عندئذ إلا بواسطة كل ما هو غير نظيف وقبيح، وهذا هو السبب فى أن
الأحاديث التى تنطق بها هنا لا تكون موجهة لجميع الناس، لكن إذا تعرفت فى ذاتك
على الجمال، فارفع نفسك إلى تذكر الجمال العقلانى».

* * *

المؤلف فى سطور :

موريس ماتيرلنك

- الكاتب البلجيكى والفيلسوف المنصوف موريس مايتزلنك (١٨٦٢-١٩٤٩).
- حصل على جائزة نوبل فى الآداب سنة ١٩١١.
- وقد اخترنا أن نقدم هذا الكتاب للقارئ العربى، لأن "مايتزلنك" غير معروف كثيراً لدى العرب. وفى هذا الكتاب يقدم - باللغة الفرنسية عملاً يفتح فيه على كل شىء ونفيضة بأسلوب شديد الرصانة والصعوبة أحياناً، نظراً لاتجاهاته الرمزية والفلسفية والصوفية.

المترجم فى سطور :

الأستاذ الدكتور / أحمد فؤاد عبد المجيد عفيفى

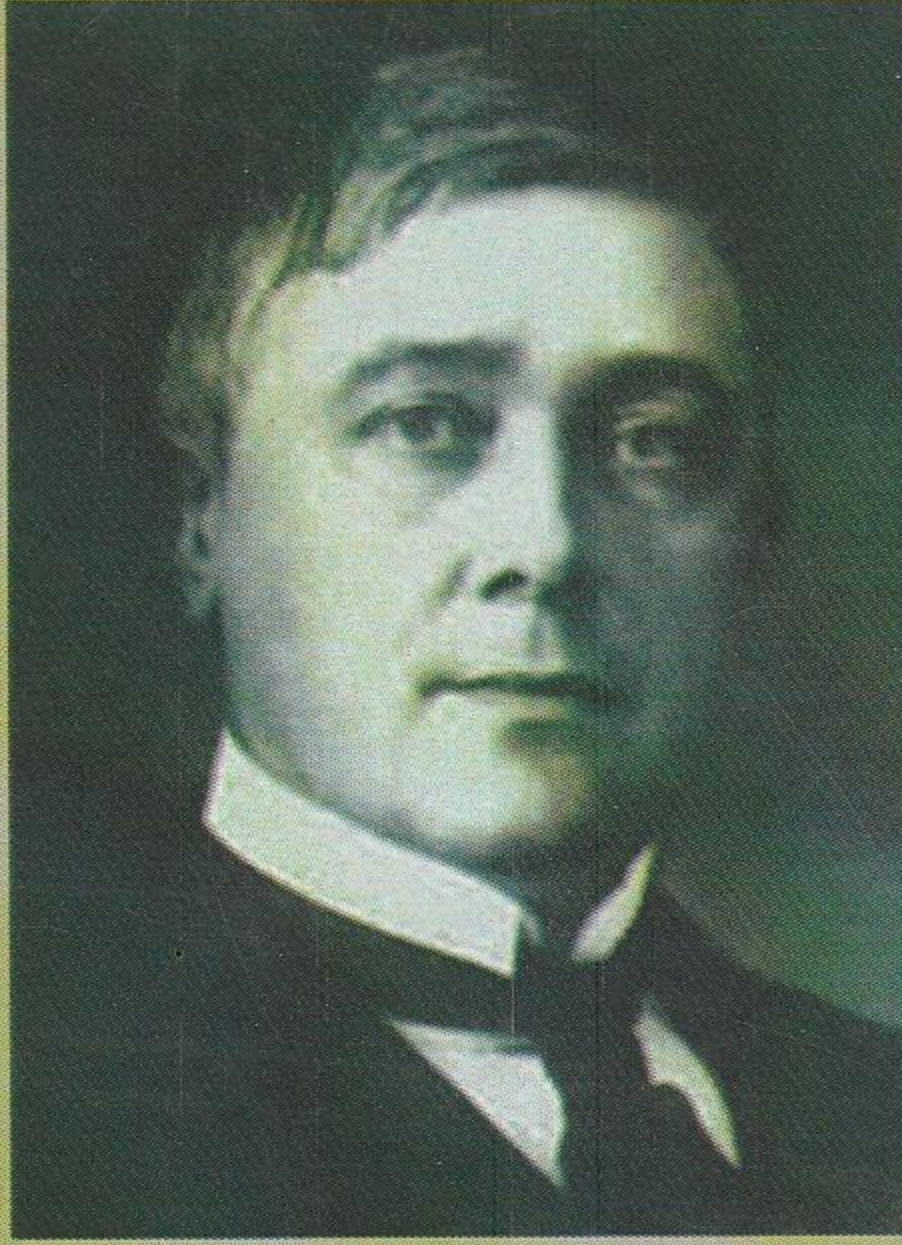
- أستاذ بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر، رئيس قسم اللغة الفرنسية ووكيل الكلية سابقاً.
- دكتوراه فى اللغة الفرنسية وآدابها من كلية الآداب - جامعة القاهرة.
- حاصل على وسام العلوم والفنون من الحكومة الفرنسية عام ١٩٨٤.
- له العديد من المؤلفات باللغة الفرنسية، وأشرف على عدد كبير من رسائل الماجستير والدكتوراه، وترجم عدداً من الكتب الفرنسية فضلاً عن حضوره لكثير من المؤتمرات المحلية والعالمية.

المراجعة فى سطور :

شيرين عبد الحميد على أحمد

- باحثة ومترجمة من اللغة الفرنسية وإليها.
- حاصلة على ليسانس الألسن من قسم اللغة الفرنسية.
- حاصلة على ماجستير الألسن من قسم اللغة الفرنسية فى الأدب والترجمة واللغة بتقدير ممتاز.
- حاصلة على الدكتوراه من كلية الألسن فى اللغة الفرنسية وأدائها.
- سبق لها ترجمة بعض الأعمال الأدبية منها:
- رواية "شيرى" التى تم نشرها فى المركز القومى للترجمة.

التصحيح اللغوى: صفاء فتحى
الإشراف الفنى: حسن كامل



فى هذا الكتاب "كنز البسطاء"، يحدثنا مايتزلنك عن الإخلاص وعن الحب دون أن يحسم ما يحيط بنا من غموض وألغاز، ولا يقدم مايتزلنك أى آراء قطعية ولكنه يقدم أفكارا عن المعجزات وعن الفضائل وعن وجود الذات والعواطف والفكر الصافى. وفلسفته فى كتاب كنز البسطاء تعتمد على موهبته فى تحليل الأحاسيس الغامضة التى تتجلى فى علاقات فكرية غير معروفة وتظهر فى كلامه عن الحياة والموت والصدفة والمستقبل وعن الله وعن اللانهاية كما لو كان يطمئن نفسه تجاه القلق والتشاؤم الذى يظهر بصفة خاصة - فى مسرحياته. ويتحرر مايتزلنك فى كتابه من القيود التى تعوق الرأى ويبدو فيه وكأنه فى صراع مستمر كى يكتشف النور والحقيقة، وهو فى هذا يطرح أسئلة أكثر مما يقدم إجابات.

والجدير بالذكر أنه عند صدور كتاب كنز البسطاء سنة 1896، لقى نجاحا كبيرا لأن القراء اكتشفوا فى دراساته موضوعات هامة مثل الصمت وحوار النفوس والمأساة اليومية وغيرها، وهو ما سمح للكاتب أن يركز انتباهه على وجوه معنوية أثرت فيه بعمق.